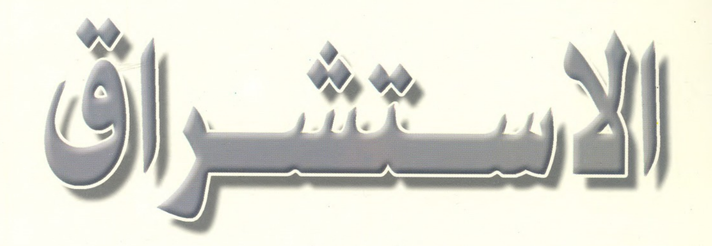


الاستشراق

والخلفية الفكرية للصراع الحضارى

الدكتور
محمود حمدى زقزوق



الاستشراق

والخلفية الفكرية للصراع الحضاري

الطبعة الأولى لمكتبة الشروق الدولية

١٤٢٩ هـ ــ يناير ٢٠٠٨م



٩ شارع السعادة . أبراج عثمان . روكسى . القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٤٥٠١٢٢٩ - ٢٤٥٠١٢٢٨ ـ ٢٢٥٦٥٩٢٩

المكتبة: ٢ شارع البورصة الجديدة ـ قصر النيل ـ القاهرة

تليفون: ٢٢٩٢٨٠٧١ ـ ٢٣٩١٢٠٧٢

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

الاستشراق

والخلفية الفكرية للصراع الحضاري

دكتور محمود حمدى زقزوق



البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

زقزوق، محمود حمدى.

الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى/ محمود حمدى زقزوق

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨.

١٤٤ص؛ ١٧ × ٢٤سم

تدمك 3 - 07 - 6278 -977 - 978

أ. العنوان. ٩٠٧,٢

رقم الايداع ٢١٠٢ /٢٠٠٨م

الترقيم الدولى I.S.B.N. - 978- 977- 6278 - 07 - 3

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

تقديم

لا تزال قضية الاستشراق تختلف حولها الآراء فى العالم الإسلامى بين مؤيد للاستشراق ورافض له. ولكن الشىء المؤكد فى هذا الصدد هو أن أعمال المستشرقين تشغل حيزاً لا يستهان به من اهتمام الكثيرين من علماء المسلمين، وذلك بالنظر إلى أن هذه الأعمال تنصب على دراسة الإسلام وتاريخه وحضارته، وتهتم بصفة عامة بكل صغيرة وكبيرة فى دنيا الإسلام والمسلمين. وهؤلاء المستشرقون يقومون ببحوثهم ودراساتهم بنظرة نقدية قد تتفق أو تختلف مع نظرة المسلمين. ويرجع ذلك إلى أن منطلقات تفكيرهم فى الموضوعات التى يقومون بدراستها تختلف عن منطلقات تفكير المسلمين. ولا زلنا نعتقد أن الحوار العلمى الهادف كفيل بالقضاء على الكثير من الأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة على كلا الجانبين.

والكتاب الذى نقدمه للقارئ الكريم فى طبعة جديدة لمكتبة الشروق الدولية قد صدر منذ حوالى ربع قرن، وأعيد طبعه مراراً من جانب العديد من الجهات. وتأتى هذه الطبعة كسابقاتها دون تغيير فيما عدا بعض هوامش قليلة جداً. وقد كنا نود إعادة النظر فى الكتاب قبل إعادة طبعه، ولكن لم تتوفر لنا - للأسف الشديد - فسحة من الوقت لذلك. وكل ما أضيف إلى هذه الطبعة هو قائمة بالأعمال التى تم إنجازها فى **«مركز الدراسات والموسوعات الإسلامية»** فى الفترة من عام ١٩٩٧ حتى عام ٢٠٠٧م، وذلك استكمالاً لما ورد فى الملحق.

ونرجو أن يكون فى هذا الكتاب نفع لباحث وفائدة لقارئ.

والله من وراء القصد وهو ولى التوفيق،،،

القاهرة فى: ٢٣ من شوال سنة ١٤٢٨هـ

٤ من نوفمبر سنة ٢٠٠٧م

(المؤلف)

كلمة إلى القارئ

ترجع قصة تأليف هذا الكتاب إلى عام ١٩٨٢م. ففي ذلك العام دعيت إلى إلقاء محاضرة في الموسم الثقافي للمحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر، فاخترت أن يكون موضوع المحاضرة هو «الإسلام والاستشراق»[١]. وعقب الفراغ من إلقاء المحاضرة طلب مني الشيخ عبدالرحمن آل محمود وكيل الرئاسة العامة للمحاكم الشرعية والشئون الدينية آنذاك أن أتوسع في هذا الموضوع ليكون كتابًا يصدر في سلسلة «كتاب الأمة» التي تصدرها رئاسة المحاكم الشرعية وذلك تعميمًا للفائدة نظرًا لأهمية الموضوع.

وقد كان هذا هو الدافع المباشر وراء تأليف هذا الكتاب، وإن كان موضوع الاستشراق في حد ذاته - يمثل أحد أهم المجالات العلمية التي تشغلني منذ سنوات عديدة قبل ذلك، حيث أصدرت عام ١٩٧٩م كتابًا بعنوان «الإسلام في الفكر الغربي» ناقشت فيه بعض التصورات الاستشراقية عن الإسلام[٢].

وعندما صدر كتاب «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري» في سلسلة «كتاب الأمة» لم أكن أتوقع أن يكون له هذا الصدى الواسع الذي أحدثه في كثير من البلاد العربية والإسلامية. فقد توالت طبعاته، حيث صدر منه ثلاث طبعات في سلسلة «كتاب الأمة» بالإضافة إلى طبعات أخرى قامت بها مؤسسة الرسالة بتصريح من المحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر. وقد ترجم الكتاب فور صدوره إلى الأندونيسية. كما تمت ترجمته في الفترة الأخيرة إلى التركية، ونشرت الترجمة في

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة بقاعة الاحتفالات بفندق الخليج بالدوحة في ٤/ ٣/ ١٤٠٣هـ الموافق ١٩/ ١٢/ ١٩٨٢م، ونشرتها مكتبة وهبة بالقاهرة عام ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

(٢) صدرت الطبعة الرابعة من هذا الكتاب بعنوان «الإسلام في مرآة الفكر الغربي» وبها إضافات عديدة - دار الفكر العربي ١٩٩٤م.

أزمير عام ١٩٩٣م، واستقبله القراء فى كل مكان استقبالاً طيبًا سعدت له بصفة خاصة؛ لأنه جعلنى أزداد ثقة بنضوج وعى القارئ المسلم الذى يقدر العمل العلمى الجاد، وجعلنى أيضًا أشعر بمدى ضخامة المسئولية الملقاة على عاتق علماء المسلمين فى تنوير الأذهان وتوضيح المفاهيم والكشف بأسلوب علمى عن التيارات الفكرية العديدة التى تشكل أخطارًا تواجه الأمة الإسلامية.

وقد استقبلت الجهات العلمية ووسائل الإعلام فى دول الخليج العربى وفى المملكة العربية السعودية - على وجه الخصوص - الكتاب استقبالاً طيبًا [١]، وعندما زرت المغرب والجزائر كان الكثيرون ممن يتحدثون معى يعرفوننى من خلال هذا الكتاب. وعندما ذهبت إلى الرياض أستاذًا زائرًا فى نهاية عام ١٩٨٥م وجدت الكتاب يدرس فى كليات الشريعة والدعوة وكلية الملك خالد العسكرية، كما علمت أنه يدرس فى الجامعة الإسلامية بالجزائر.

ولم يقف الصدى الذى أحدثه الكتاب عند حدود العالم العربى والإسلامى، بل تعداه إلى دائرة الاستشراق فى أوروبا. حيث قام باحث ألمانى فى جامعة بون هو السيد أكهارد رودولف بإعداد رسالة للدكتوراه بعنوان «علم الإسلاميات الغربى فى مرآة النقد الإسلامى» بإشراف المستشرق الألمانى المعروف بمواقفه المعتدلة الأستاذ «شتيفان فيلد - Stephan Wild» رئيس معهد الدراسات العربية بجامعة بون، وقد شكل كتابنا هذا واحدًا من أهم المصادر التى اعتمد عليها الباحث المذكور فى عرض وجهة النظر الإسلامية إزاء الاستشراق، وقد نشرت هذه الرسالة فى برلين عام ١٩٩١م.

وقد حمدت الله - تعالى - على توفيقه وفضله.

ومن ناحية أخرى، كان هناك صوت نشاز انبرى فجأة بعنترية جوفاء فى مقال بمجلة الأمة القطرية [٢] يهاجمنى؛ لأنى دعوت فى هذا الكتاب إلى حوار مع المستشرقين المعتدلين. ويعلم الله أننى لا أضيق بالنقد، بل أعتبره علامة صحية وأستفيد من

---

(١) هناك دراسة حول الكتاب منشورة فى مجلة «عالم الكتب» بالمملكة العربية السعودية (رجب ١٤٠٤هـ - أبريل ١٩٨٤م) كما نشرت هذه المجلة أيضًا فصلاً من الكتاب عن «أعمال المستشرقين»، وقد عرضه عدد من الباحثين والكتاب فى الصحافة والمجلات الإسلامية فى دول الخليج وفى صحيفة الأهرام القاهرية والشرق الأوسط بلندن، وإذاعة وتليفزيون السعودية حيث تناوله الشيخ على الطنطاوى فى أحد أحاديثه بالتليفزيون السعودى، كما عرضه التليفزيون المصرى فى برنامج «المكتبة الإسلامية».

(٢) العدد الثانى والستون من السنة السادسة صفر ١٤٠٦هـ - تشرين أول (أكتوبر) ١٩٨٥م.

ملاحظات الناقدين البناءة. أما النقد لمجرد الظهور دون فهم ودون إدراك لعظم مسئولية النقد، فهذا أمر لا صلة له بالعلم ولا بالفكر، وبالتالى ليست له قيمة فى الموازين العلمية.

فقد ترك «الناقد» الكتاب كله وما فيه من كشف عن حقيقة الاستشراق ومواقفه إزاء الإسلام والمسلمين ومسئولية المسلمين فى هذا الصدد - ترك ذلك كله وتوقف فقط عند فقرة لا تزيد على نصف صفحة فى نهاية الكتاب، حيث دعوت فيها إلى إجراء حوار مع المستشرقين المعتدلين دعمًا لمواقفهم وتقوية لجانبهم بهدف أن تصبح هذه الاتجاهات المعتدلة فى يوم من الأيام تيارًا عامًا فى الغرب يكون له تأثيره الفعال فى تصحيح الصورة الخاطئة عن الإسلام فى الغرب.

ومن ناحية أخرى سيكون من نتائج هذا الحوار ترشيد المثقفين المسلمين المتأثرين بأفكار استشراقية سلبية والتخفيف من حدة اندفاعهم وتقليدهم لهذه الأفكار وإعادتهم إلى المواقف الإسلامية الصحيحة.

هذا هو كل ما ذكرته حول هذا الموضوع. ولكن صاحبنا المغوار الذى يحارب فى غير ميدان لا يعجبه ذلك - وهذا من حقه - ولكن ليس من حقه أن يتجنى على الحقيقة معلقًا على ما قلته بقوله «وهكذا تحول المسلمون من موقف القوى إلى موقف الضعيف المستعطف لرحمة الآخرين للدفاع عن أفكارهم».

إن الكتاب ليس فيه كلمة واحدة توحى من قريب أو بعيد بهذا التحول المزعوم من موقف القوى إلى موقف الضعيف المستعطف.. وليس فى الكتاب دفاع مزعوم عن أفكار المستشرقين، بل العكس هو الصحيح لدرجة أن البعض قد اتهمنى بالقسوة فى حكمى على الاستشراق والمستشرقين، ولكنى فى حقيقة الأمر لم أكن ولا أريد أن أكون من هذا الفريق أو ذاك، بل أردت بمنهج علمى أن أعرض القضية دون تجن على الحقيقة ودون ظلم لأحد انطلاقًا من منطلق قرآنى ثابت: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، [المائدة: ٨] واعتمادًا على حقائق مقررة ووقائع ثابتة.

ولكن مصيبتنا أن هناك نفرًا منا لا يطيق البحث العلمى، وليست له قدرة على الارتفاع إلى مستواه، ويميل هذا النفر إلى لون آخر من ألوان «الغوغائية»، وقد يكسب من خلاله استحسانًا مؤقتًا، ولكن سرعان ما يزول هذا الاستحسان؛ لأنه لم يكن له

أساس يرتكز عليه. وما أسهل أن ينتزع المرء تصفيق الجماهير بخطب رنانة وعبارات حماسية ترفع «ترمومتر» الحماس إلى أعلى درجة، ولكن سرعان ما ينخفض هذا «الترمومتر» مرة أخرى إلى أدنى مستوى؛ لأنه كان أمراً وقتياً عارضاً اتجه به صاحبه إلى العواطف يتلاعب بها، وليس إلى العقل الذى يدرك الأبعاد الحقيقية للمشكلات المطروحة، ويقدر الأمور حق قدرها، ويزنها بموازين عادلة، ويضع كل شىء فى حجمه الصحيح.

ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى اتباع الأسلوب العلمى وتناول الأمور بموضوعية هادئة. والحق أن التزام الموضوعية، هو دائماً فى صالح الإسلام. وإذا كان خصوم الإسلام يوهموننا بأنهم يتبعون فى دراستهم للإسلام قواعد البحث العلمى، فعلينا أن نبين لهم باسم العلم أيضاً وبمناهج العلم زيف ما يدعون، لا بالدعاوى العريضة والعبارات الجوفاء التى لا تعنى شيئاً.

بقيت كلمة حول عنوان الكتاب: «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى». ففى سبتمبر عام ١٩٩٠م اشتركت فى ندوة بجامعة بامبرج بألمانيا، وألقيت فيها محاضرة بعنوان «الصلات الثقافية بين العالم الإسلامى والغرب». وأثناء المناقشة التى دارت بعد المحاضرة قال المستشرق الألمانى المعروف الأستاذ شتيفان فيلد: إننا هنا نتحدث عن الحوار فى حين يتحدث الأستاذ زقزوق فى كتاب له عن الصراع، وأبرز للحاضرين نسخة من كتابى الذى يحمل العنوان المشار إليه. وقد كان ردى على ذلك يتلخص فى أننا ينبغى أن نكون واقعيين فى نظرتنا إلى الأمور. فالصراع كان قائماً فى الماضى على مستويات عديدة. ولا نستطيع اليوم أن نقول إنه قد أصبح تاريخاً مضى وانقضى وكأننا بذلك قد حللنا المشكلة، فآثار الصراع الماضى لا تزال ماثلة أمامنا حتى اليوم بشكل أو بآخر[١].

وهذه حقيقة لا يجوز لنا أن نتجاهلها عندما نتحاور. فلا بد من المصارحة أولاً حتى يمكن أن نزيل سوء الفهم على كلا الجانبين، ونفتح صفحة جديدة على أساس من الاحترام المتبادل وتفهم كل طرف وجهة نظر الطرف الآخر. وعندما يتحقق ذلك سيحل الحوار المثمر محل الصراع المخرب للعلاقات بين الجانبين. وهذا هو بالضبط ما

(١) وكمثال واضح على ذلك تلك الدعوة التى أطلقها بعض المفكرين والساسة الغربيين فى السنوات الأخيرة محذرة مما يسمونه بالخطر الإسلامى الذى يمثل العدو البديل بعد سقوط الشيوعية.

أقصده. ومن هنا ناديت فى نهاية الكتاب بالحوار مع المستشرقين المعتدلين. فنحن لسنا دعاة صراع وشقاق، وإنما دعاة حوار وتفاهم انطلاقًا من الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذا ليس كلامًا نظريًا، وإنما هو موقف مبدئى أثبتناه دائمًا فى كل مؤتمرات الحوار التى اشتركنا فيها فى العديد من البلاد الأوروبية. وهكذا يتضح أن عنوان الكتاب له ما يبرره.

وإذ نعيد اليوم نشر هذا الكتاب، فذلك لاعتقادنا بأن الحاجة لا تزال ماسة إليه نظراً لأهمية الموضوع. فعلى الرغم من الطبعات العديدة السابقة فإن الطلب عليه لا يزال متزايداً.

وتأتى هذه الطبعة كسابقاتها دون تعديل، اللهم إلا فى بعض أمور شكلية قليلة جداً وإضافة بعض الفقرات إلى المقدمة، ولم أجد هناك حاجة ماسة إلى إجراء تعديل كبير أو إضافة جديدة إلى الكتاب، فهو يعد حلقة فى السلسلة التى أخرجها عن الإسلام فى الفكر الغربى[(١)].

ونأمل أن يسد هذا الكتاب بعض الفراغ فى المكتبة العربية الإسلامية بالنسبة لهذه القضية القديمة الجديدة، وهى قضية الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى.

والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل!

مدينة نصر: شوال ١٤١٧هـ - فبراير ١٩٩٧م.

د. محمود حمدى زقزوق

---

(١) صدر منها الآن بالإضافة إلى كتاب «الاستشراق» كتاب «الإسلام فى مرآة الفكر الغربى» وكتاب «الإسلام فى تصورات الغرب» (مكتبة وهبة بالقاهرة)، ونأمل أن تتاح لنا فسحة من الوقت لإعداد كتاب آخر عن «الإسلام فى تصورات اللاهوت الغربى».

مقدمة

إن مما لا جدال فيه أن الاستشراق له أثر كبير فى العالم الغربى وفى العالم الإسلامى على السواء، وإن اختلفت ردود الأفعال على كلا الجانبين. ففى العالم الغربى لم يعد فى وسع أحد أن يكتب عن الشرق أو يفكر فيه أو يمارس فعلاً مرتبطًا به إلا بعد أن يتخلص من القيود التى فرضها الاستشراق على حرية الفكر أو الفعل فى هذا المجال من حيث إن الاستشراق «يشكل شبكة المصالح الكلية التى يستحضر تأثيرها بصورة لا مفر منها فى كل مناسبة يكون فيها ذلك الكيان العجيب (الشرق) موضوعًا للنقاش»[1].

وفى عالمنا العربى الإسلامى المعاصر لا يكاد يجد المرء مجلة أو صحيفة أو كتابًا إلا وفيها ذكر أو إشارة إلى شيء عن الاستشراق أو يمت إليه بصلة قريبة أو بعيدة.

وهذا أمر ليس بمستغرب، ذلك أن الاستشراق فى حقيقة الأمر كان ولا يزال جزءًا لا يتجزء من قضية الصراع الحضارى بين العالم الإسلامى والعالم الغربى، بل يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك ونقول: إن الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع. ولهذا فلا يجوز التقليل من شأنه بالنظر إليه على أنه قضية منفصلة عن باقى دوائر هذا الصراع الحضارى. فقد كان للاستشراق من غير شك أكبر الأثر فى صياغة التصورات الأوروبية عن الإسلام، وفى تشكيل مواقف الغرب إزاء الإسلام على مدى قرون عديدة.

ولا يزال الأوروبيون حتى اليوم يستقون معلوماتهم عن الإسلام من كتابات المختصين فى هذا المجال من الأوروبيين، وهؤلاء هم بطبيعة الحال من طبقة المستشرقين، هذا فضلاً عما يكتبه بعض الأدباء أو الفلاسفة الأوروبيين. ولكن كتابة هذا الفريق الأخير لا تخرج فى الغالب عن كونها مبنية على كتابات المستشرقين[2].

---

(١) إدوارد سعيد: الاستشراق ص ٣٩، ترجمة كمال أبو ديب ـ مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت ١٩٨١م.

(٢) انظر كتابنا «الإسلام فى مرآة الفكر الغربى» ص ١١٧ وما بعدها.

والاستشراق قضية تتناقض حولها الآراء فى عالمنا الإسلامى، فهناك من يؤيده ويتحمس له إلى أقصى حد، وهناك من يرفضه جملة وتفصيلاً ويلعن كل من يشتغل به بوصفه عدواً لدوداً للإسلام والمسلمين.

والواقع الذى لا يمكن إنكاره هو أن الاستشراق له تأثيراته القوية فى الفكر الإسلامى الحديث إيجاباً أو سلباً أردنا أم لم نرد. ولهذا فإننا لا نستطيع أن نتجاهله أو نكتفى بمجرد رفضه، وكأننا بذلك قد قمنا بحل المشكلة، إننا لو فعلنا ذلك لكنا كالنعامة التى تدفن رأسها فى الرمال. ولهذا، فإنه ليس هناك بديل عن مواجهة المشكلة وطرحها على بساط البحث ودراستها واستخلاص النتائج واقتراح الحلول.

وقد آن الأوان لأن نبتعد عن التعميمات الخاطئة، ونتحول إلى موقف نقدى يقوم على أسس علمية، وهذا هو الاتجاه الذى يأمرنا به القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

والاستشراق - فى حقيقة الأمر - يشتمل على عناصر سلبية وأخرى إيجابية، وعلينا أن نعترف للمستشرقين بما لهم من إيجابيات، ومن ناحية أخرى فإنه من حقنا بل من واجبنا، أن ننبه إلى ما وقعوا فيه من أخطاء، وما اشتملت عليه دراسات العديد منهم من أباطيل، وخاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم ونبينا محمد(ﷺ).

وليس من الصعب التمييز بين العناصر الإيجابية والعناصر السلبية فى دراسات المستشرقين، فالعناصر الإيجابية تتمثل فى العناية بالمخطوطات العربية فى المكتبات الغربية، وفهرستها، وتحقيق العديد من أمهات الكتب العربية فى شتى مجالات الفكر الإسلامى، والقيام بالعديد من الدراسات اللغوية المفيدة والموسوعات والمعاجم النافعة، وغير ذلك من دراسات فى مجالات العلوم والفنون الإسلامية.

أما العناصر السلبية فى دراسات المستشرقين، فإنها تتمثل بصفة أساسية فى العديد من الدراسات والبحوث حول القرآن الكريم والسنة المحمدية وسيرة الرسول (ﷺ)، فالكثير من هذه الدراسات يشتمل على أخطاء شنيعة لا تخفى على الباحث المسلم صاحب العقلية الواعية. . أما بعض أبناء المسلمين الذين ليست لديهم خلفية ثقافية إسلامية فقد يخفى عليهم الكثير من المغالطات والأخطاء فى دراسات بعض المستشرقين. والاتجاه السائد بيننا وبين المستشرقين حتى الآن هو ما يمكن أن نطلق عليه

(حوار الطرشان)، فدراسات المستشرقين تقابل فى العالم الإسلامى فى الأعم الأغلب بالرفض، بوصفها دراسات صادرة من أعداء الإسلام، وفى المقابل لا يهتم الكثير من المستشرقين بما يكتبه المسلمون المعاصرون؛ لأن هذه الكتابات فى نظرهم كتابات عاطفية انفعالية، وليست علمية.

ومن هنا، فلا بد من إقامة الجسور بين علماء المسلمين والمعتدلين من المستشرقين حتى يمكن إجراء حوار مثمر بين الطرفين، وتوجد هناك صلات فردية بين بعض علماء المسلمين وبعض المستشرقين، وهناك مستشرقون معاصرون يتوخون الموضوعية وعلى استعداد للحوار العلمى مع علماء المسلمين، وتجرى منذ فترة محاولات لإقامة قنوات اتصال بين الجانبين لتنظيم الحوار على المستوى العلمى بين الطرفين. ومن المصلحة الإسلامية أن يكون هناك مثل هذا الحوار لعرض وجهة النظر الإسلامية فى شتى الموضوعات الخلافية على أسس علمية سليمة، فذلك سيكون له من غير شك أثره الإيجابى فى تصحيح الكثير من الأخطاء.

ولا يجوز لنا أن نغلق الأبواب أمام التواصل العلمى فى هذا المجال، بل ينبغى أن نقبل على ذلك بفكر متفتح وعقلية ناقدة تميز الخبيث من الطيب. وهنا يظل القانون القرآنى هو الذى يرشدنا إلى سواء السبيل، هذا القانون المتمثل فى قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾[الرعد: ١٧].

وهكذا نجد أن موضوع الاستشراق يفرض نفسه علينا بإلحاح، ويتطلب منا وقفة تأملية جادة لبحثه ودراسة أبعاده وتأثيراته بالنسبة للإسلام والمسلمين.

وهناك من غير شك بعض الجهود العلمية القيمة فى هذا الصدد من جانب بعض المسلمين، وهى جهود لا يجوز التقليل من شأنها [١] ولسنا نقصد بهذا الكتاب أن يكون عوضًا عن هذه الدراسات

ولكن حسبنا هنا أن نركز على بعض النقاط الهامة التى نرجو من ورائها أن تكون حافزًا لنا على مواصلة التفكير والتأمل فى أبعاد هذه القضية المتعددة الجوانب المتشعبة الأطراف من أجل الوصول إلى اتخاذ المواقف الصحيحة التى من شأنها أن تسير بنا إلى بلوغ الأهداف المرجوة.

---

(١) سنشير فى هوامش هذا الكتاب إلى بعض هذه الأعمال.

وفى محاولتنا هنا لعرض هذا الموضوع سنتوخى أن نكون موضوعيين بعيدين عن اتخاذ أسلوب المواقف الجدلية الانفعالية؛ لأن مثل هذه المواقف قليلة الجدوى وإن كان لها بعض التأثير فإنه تأثير وقتى سرعان ما يزول لعدم ارتكازه على أسس متينة. ومن أجل ذلك نريد أن نخاطب عقل القارئ، ونضع أمامه القضية بإيجابياتها وسلبياتها، ونشركه فى البحث عن الحلول الجادة.

وفى هذا الصدد نود أن نؤكد أن التزام الموضوعية هو دائمًا فى صالح الإسلام. والأمر الذى لا ينبغى أن يغيب هنا عن الأذهان هو أن الإسلام بوصفه دين الله الحق لا يخشى عليه من أى تيارات فكرية مناوئة أيًا كان شأنها وانتشارها وقوتها طالما وجد هذا الدين من أتباعه من يستطيع فهمه فهمًا سليمًا، وإدراك أهدافه ومراميه إدراكًا واعيًا. فإذا توفر مثل هذا الفهم السليم والإدراك الواعى فسيتضح أنه لا توجد هناك تيارات فكرية يمكن أن تتحدى الإسلام، بل العكس هو الصحيح، وهو أن الإسلام نفسه هو الذى يتحدى. أما إذا افتقد الإسلام لدى أتباعه الوعى السليم والفهم الصحيح لأصوله وغاياته فإن مواقف هؤلاء الأتباع - مهما حسنت النيات - لن تخرج عن مواقف الصديق الجاهل الذى هو أضر بالإسلام من العدو العاقل.

والكتاب الذى نقدمه اليوم إلى القارئ الكريم يحتوى على ثلاثة فصول: يشتمل الفصل الأول منها على مدخل تاريخى حول نشأة الاستشراق وتطوره.

أما الفصل الثانى - وهو الفصل الرئيسى فى هذا الكتاب - فإنه يتناول بالبحث مواقف المستشرقين بإيجابياتها وسلبياتها.

وفى الفصل الثالث والأخير نتحدث عن موقفنا - نحن المسلمين - من الحركة الاستشراقية، والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

***

الفصل الأول

مدخل تاريخي
حول نشأة الاستشراق وتطوره

تمهيد

ليس القصد من هذا المدخل التاريخي حول نشأة الاستشراق وتطوره أن يكون عرضًا شاملاً يقف عند كل التفاصيل ويدقق فى الجزئيات ويؤرخ لكل مرحلة من مراحل الاستشراق، وإنما القصد منه هو فقط إلقاء نظرة عامة تبرز لنا بعض المعالم الرئيسية والخطوط العريضة فى هذا الصدد، نتعرف من خلالها على أهم العوامل التى ساعدت على نشأة الاستشراق وأهم المؤثرات التى كان لها دورها الفعال فى تطور الحركة الاستشراقية، وما صاحب ذلك كله من تطور فى النظرة الغربية للإسلام والحضارة الإسلامية بوجه عام. وتوضيح هذه الجوانب يعد بمثابة تمهيد ضرورى لفهم الاتجاهات المختلفة للمواقف الاستشراقية إزاء الإسلام والمسلمين.

ولتحقيق هذا الغرض سنلقى أولاً نظرة على البدايات الأولى للاستشراق ومنطلقات هذه البدايات فى القرون الوسطى، ثم نلقى بعض الضوء على مدى صلة الاستشراق بالتبشير، ونشير إلى بعض المحاولات الجادة التى ظهرت فى أوروبا للتعرف على الإسلام، ثم ننتقل إلى الحديث عن ازدهار الاستشراق فى العصر الحديث ومظاهر هذا الازدهار، ونتناول فى هذا الصدد صلة الاستشراق بالاستعمار ودور اليهود فى الحركة الاستشراقية. ونختم هذا الفصل بالحديث عن مستقبل الاستشراق.

البدايات الأولى

الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقى[1] وكلمة «مستشرق» بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربى يشتغل بدراسة الشرق كله: أقصاه ووسطه وأدناه، فى لغاته وآدابه وحضاراته وأديانه. ولكننا هنا لا نقصد هذا المفهوم الواسع، ولا يعنينا هنا أن نتعرض لبحثه، كما لا يعنينا أيضًا أن نتعرض للتغيرات الجغرافية والحضارية التى طرأت على مفهوم الشرق فى مختلف العصور، وإنما كل ما يعنينا هنا هو المعنى الخاص لمفهوم الاستشراق الذى يعنى الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامى فى لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام. وهذا المعنى هو الذى ينصرف إليه الذهن فى عالمنا العربى الإسلامى عندما يطلق لفظ استشراق ومستشرق، وهو الشائع أيضًا فى كتابات المستشرقين المعنيين. . ومن الصعب تحديد تاريخ معين لبداية الاستشراق وإن كان بعض الباحثين يشير إلى أن الغرب يؤرخ لبدء وجود «الاستشراق الرسمى» بصدور قرار مجمع «ڤيينا» الكنسى فى عام ١٣١٢م بإنشاء عدد من كراسى اللغة العربية فى عدد من الجامعات الأوروبية[2]. ولكن الإشارة هنا إلى «الاستشراق الرسمى» تدل على أنه كان هناك استشراق غير رسمى قبل هذا التاريخ، فضلاً عن أن هناك باحثين أوروبيين - كما سنذكر فيما يلى - لا يعتمدون التاريخ المشار إليه بداية للاستشراق. ولذلك تتجه المحاولات فى هذا الصدد لا إلى تحديد سنة معينة لبداية الاستشراق، وإنما إلى تحديد فترة زمنية معينة على وجه التقريب يمكن أن تعد بداية للاستشراق.

وليس هناك شك فى أن الانتشار السريع للإسلام فى المشرق والمغرب قد لفت بقوة أنظار رجالات اللاهوت المسيحى إلى هذا الدين. ومن هنا بدأ اهتمامهم بالإسلام ودراسته. ومن بين العلماء المسيحيين الذين أظهروا فى وقت مبكر اهتمامًا بدراسة الإسلام - لا من أجل اعتناقه، وإنما من أجل حماية إخوانهم فى الدين منه - كان العالم المسيحى يوحنا الدمشقى (٦٧٦م-٧٤٩م). ومن بين مصنفاته فى هذا الصدد لإخوانه فى الدين كتاب «محاورة مع مسلم» وكتاب «إرشادات النصارى فى جدل المسلمين»[3].

---

(١) راجع الدراسات الإسلامية والعربية فى الجامعات الألمانية ص ١١. تأليف «رودى بارت» وترجمة د. مصطفى ماهر - القاهرة ١٩٦٧م.

(٢) انظر: الاستشراق: إدوارد سعيد ص ٨٠.

(٣) انظر: المستشرقون لنجيب العقيقى ط ٤ ج١ ص ٧٢ دار المعارف بالقاهرة ١٩٨١م، انظر أيضًا: تاريخ الفلسفة فى الإسلام لديبور، وترجمة د. أبو ريدة ص ٨ هامش.

ولكننا لا نستطيع أن نعد مثل هذه المحاولات بداية للاستشراق. فيوحنا الدمشقى كان رجلاً شرقيًا عاش فى ظل الدولة الأموية، وخدم فى القصر الأموى. ولهذا سنصرف النظر عن مثل هذه المحاولات من جانب المسيحيين الشرقيين، ونقصر حديثنا على العلماء الغربيين.

وهنا نجد أيضًا أنه ليس هناك اتفاق على فترة زمنية معينة لبداية الاستشراق. فبعض الباحثين يذهب إلى القول بأن البدايات الأولى للاستشراق ترجع إلى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى، بينما يرى (رودى بارت[١] Rudi Paret) أن بدايات الدراسات الإسلامية والعربية فى أوروبا تعود إلى القرن الثانى عشر الذى تمت فيه لأول مرة ترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، كما ظهر أيضًا فى القرن نفسه أول قاموس لاتينى عربى[٢]. وما ذهب إليه بارت فى هذا الصدد سبق أن عبر عنه كتاب المستشرق جوستاف دوجا «تاريخ المستشرقين فى أوروبا من القرن الثانى عشر حتى القرن التاسع عشر» الذى صدر فى باريس فى نهاية الستينيات من القرن التاسع عشر.

وهناك من الباحثين من يجعل بداية الاستشراق قبل ذلك بقرنين، أى فى القرن العاشر الميلادى. ولعل هذا هو السبب الذى أدى بنجيب العقيقى إلى أن يجعل كتابه عن المستشرقين - فى أجزائه الثلاثة - سجلاً للاستشراق على مدى ألف عام، بدءًا من الراهب الفرنسى جربر دى أورالياك (٩٣٨م-١٠٠٣م) الذى قصد الأندلس، وتتلمذ على أساتذتها فى أشبيلية وقرطبة حتى أصبح أوسع علماء عصره فى أوروبا ثقافة بالعربية والرياضات والفلك، ثم تقلد فيما بعد منصب البابوية فى روما باسم سلفستر الثانى (٩٩٩م-١٠٠٣م)[٣].

وعلى الرغم من أن الاستشراق - بناء على ذلك - يمتد بجذوره إلى ما يقرب من ألف عام مضت فإن مفهوم «مستشرق - Orientalist» لم يظهر فى أوروبا إلا فى نهاية القرن الثامن عشر. فقد ظهر أولاً فى إنجلترا عام ١٧٧٩م وفى فرنسا فى عام ١٧٩٩م، وأدرج مفهوم «الاستشراق - Orientalism» فى قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨م[٤].

---

(١) مستشرق ألمانى معاصر وصاحب أحدث ترجمة ألمانية لمعانى القرآن الكريم.

(٢) رودى بارت (فى كتابه الآنف الذكر) ص ٩.

(٣) المستشرقون للعقيقى ١/ ١١٠.

(٤) انظر الفصل الذى كتبه مكسيم رودنسون فى: تراث الإسلام - تصنيف شاخت وبوزورث، وترجمة د. محمد زهير السمهورى ج١ ص٧٨ - سلسلة عالم المعرفة بالكويت ١٩٧٨م.

ولكن المهم هنا ليس هو متى ظهر مفهوم «مستشرق» أو «استشراق»، وإنما المهم هو متى بدأت الدراسات العربية والإسلامية فى أوروبا، ومتى بدأ الاشتغال بالإسلام والحضارة الإسلامية سواء بالقبول أو بالرفض. وهذا أمر موغل فى القدم - كما رأينا - أما المصطلح ذاته فلا يعنى شيئًا أكثر من إقرار أمر واقع، وإطلاق وصف على الدراسات التى كانت قائمة بالفعل قبل ذلك بقرون عديدة، بصرف النظر عن مدى علمية هذه الدراسات أو موضوعيتها، فهذه مسألة أخرى قابلة للنقاش حتى فيما يتعلق بالدراسات الاستشراقية فى العصر الحاضر.

وعلى أية حال، فإن الدافع لهذه البدايات المبكرة للاستشراق كان يتمثل فى ذلك الصراع الذى دار بين العالمين الإسلامى والمسيحى فى الأندلس وصقلية، كما دفعت الحروب الصليبية بصفة خاصة إلى اشتغال الأوروبيين بتعاليم الإسلام وعاداته. ولهذا يمكن القول بأن تاريخ الاستشراق فى مراحله الأولى هو تاريخ للصراع بين العالم المسيحى الغربى فى القرون الوسطى والشرق الإسلامى على الصعيدين الدينى والأيديولوجى[١]. فقد كان الإسلام كما يقول (ساذرن - Southern) يمثل مشكلة بعيدة المدى بالنسبة للعالم المسيحى فى أوروبا على المستويات كافة.

فباعتباره مشكلة عملية استدعى الأمر اتخاذ إجراءات معينة كالصليبية والدعوة إلى المسيحية والتبادل التجارى، وباعتباره مشكلة لاهوتية تطلب بإلحاح العديد من الإجابات على العديد من الأسئلة فى هذا الصدد، وذلك يقتضى معرفة الحقائق التى لم يكن من السهل معرفتها. وهنا ظهرت مشكلة تاريخية صار من المتعذر حلها، كما ندر إمكانية تناولها دون معرفة أدبية ولغوية يصعب اكتسابها، وصارت المشكلة أكثر تعقيدًا بسبب السرية والتعصب والرغبة القوية فى عدم معرفتها خشية الدنس[٢].

اتجاهان مختلفان

وقد نشط اللاهوتيون الأوروبيون فى ذلك الوقت المبكر ضد الإسلام وراحوا ينشرون الافتراءات والأكاذيب حول الإسلام ونبيه ﷺ، وزعموا فيما زعموا أن الإسلام قوة خبيثة

---

(١) C.E.Bosworth: Orientalism and Orientalists (In: Islamic Bibliography 1977 Great Britain.

(٢) ساذرن: نظرة الغرب إلى الإسلام فى القرون الوسطى. ترجمة د. على فهمى خشيم ود. صلاح الدين حسنى ص١٧ دار مكتبة الفكر بطرابلس - ليبيا ١٩٧٥م.

شريرة وأن محمداً ﷺ ليس إلا صنمًا أو إله قبيلة أو شيطانًا . وغزت الأساطير الشعبية والخرافات خيال الكتاب اللاتينيين . ولم يكن الهدف بطبيعة الحال هو عرض صورة موضوعية عن الإسلام، فقد كان هذا أبعد ما يكون عن أذهان المؤلفين فى ذلك الزمان .

وهناك فى هذا الصدد حكايات فى وصف الإسلام مغرقة فى الخيال وفى الضلال اخترعها الكتاب فى ذلك العصر مثل أنشودة رولاند الشهيرة : «The Song of Roland» وغيرها من آثار أدبية تصف المسلمين بأنهم عباد أصنام، أو أنهم يعبدون آلهة ثلاثة هى : (تيرفاجان - Tervagan)، و(محمد) : و(أبوللو)[1] . وقد اعترف أعلم المؤلفين المسئولين عن هذا الأدب وهو (جيبير النوجنتى - Guibert de Nogent) (ت ١٢٢٤ م) بأنه لا يعتمد فى كتاباته عن الإسلام على أية مصادر مكتوبة، وأشار فقط إلى آراء العامة، وأنه لا يوجد لديه أية وسيلة للتمييز بين الخطأ والصواب، ثم قال مبرراً كتاباته غير العلمية عن الإسلام ونبيه :

«لا جناح على المرء إذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن أن يتصوره المرء» .

وقد أطلق ساذرن على هذه الفترة فى كتابه «نظرة الغرب إلى الإسلام فى القرون الوسطى» عنوان «عصر الجهالة» . وهو عصر كان أبعد ما يكون عن روح العلم والموضوعية . وفى ذلك يقول ساذرن :

«على أن الشىء الوحيد الذى يجب أن لا نتوقع وجوده فى تلك العصور هو الروح المتحررة الأكاديمية، أو البحث الإنسانى الذى تميز به الكثير من البحوث التى تناولت الإسلام فى المائة سنة الأخيرة»[2] .

وفى مقابل تلك الصورة البغيضة للإسلام كانت هناك جهود أخرى للوصول إلى معرفة موضوعية فى مجال العلوم العربية مثل الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية .

يقول مكسيم رودنسون عن تلك الفترة :

«ولا يصادف المرء موقفًا موضوعيًا إلا فى مجال مختلف تمامًا لا يمت إلى الدين الإسلامى إلا بصلة بعيدة، وأعنى العلم بأوسع معانيه»[3] .

---

(١) انظر أيضًا : إرنست رينان : ابن رشد والرشدية ص ٢٨٩ - ترجمة عادل زعيتر القاهرة ١٩٥٧م .
(٢) المرجع قبل السابق ص ١٥ ، ١٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، انظر أيضًا تراث الإسلام ١/ ٣٤، وأيضًا «Bosworth» . فى بحثه الذى سبقت الإشارة إليه .
(٣) تراث الإسلام ١/ ٣٦ .

وقد أخطأ «رودنسون» هنا فى جعله العلم لا يمت إلى الإسلام إلا بصلة بعيدة. فقد كان الإسلام فى حقيقة الأمر وراء كل إنجاز علمى حققه المسلمون فى مختلف المجالات.

وبدءاً من عام ١١٣٠م كان العلماء المسيحيون فى أوروبا يعملون جاهدين على ترجمة الكتب العربية فى الفلسفة والعلوم. وكان لرئيس أساقفة طليطلة وغيره الفضل فى إخراج ترجمات مبكرة لبعض الكتب العلمية العربية، بعد الاقتناع بأن العرب يملكون مفاتيح قدر عظيم من تراث العالم الكلاسيكى. وهذه الحركة التى قامت فى أوروبا لترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية تشبه تلك الحركة التى قامت فى العالم الإسلامى فى عهد المأمون ومن سبقه لترجمة العلوم اليونانية وغيرها إلى العربية. وتخدم أيضًا الأغراض نفسها التى قامت من أجلها حركة الترجمة فى العالم الإسلامى، والتى تتمثل فى نشر العلم ورفع المستوى الثقافى من أجل خدمة الحياة الإنسانية وبناء الحضارة. ولكن هذا الاتصال العلمى العميق بحضارة الإسلام لم يكن له تأثير فى تغيير النظرة الغربية للصورة العقيدية أو الإلهية أو التاريخية للإسلام.

وقد كان هناك فى القرن الثانى عشر أيضًا بعض المحاولات للتعرف على الإسلام بقدر من الموضوعية، ولكن مع الهدف الواضح والمعلن وهو محاربة هذه التعاليم الإسلامية الإلحادية. ومن أجل ذلك قام بطرس الموقر (ت١١٥٦م) رئيس رهبان كلونى بتشكيل جماعة من المترجمين فى إسبانيا يعملون كفريق واحد من أجل الحصول على معرفة علمية موضوعية عن الدين الإسلامى. وقد كان بطرس الموقر وراء ظهور أول ترجمة لمعانى القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية فى عام ١١٤٣م، تلك الترجمة التى قام بها العالم الإنجليزى (روبرت أوف كيتون ـ Robert Ketton)[١].

وقد حاول بطرس الموقر ـ الذى كان يعتبر الإسلام هرطقة مسيحية ـ أن يجد مبررات للجهود التى يقوم بها فى مجال الترجمة من أجل التعرف على الإسلام، حتى يحظى العمل بالقبول لدى إخوانه المسيحيين فقال:

«إذا كان هذا العمل يبدو من النوافل الزائدة لأن العدو ليس عرضة للهجوم بمثل هذا السلاح، فإنى أرد بأن فى بلاد ملك عظيم تكون بعض الأشياء للدفاع، وبعضها

---

(١) المرجع السابق ٣٧ـ٣٩.

للزينة، وبعضها لكليهما معًا. إن سليمان المسالم صنع الأسلحة للدفاع ولو أنها لم تكن ضرورية فى زمانه، وداود صنع الزينات للهياكل، ولو أنه لم تكن هناك وسائل لاستعمالها فى عصره[1]، وكذلك الحال مع هذا العمل، فإذا لم يكن بالإمكان تنصير المسلمين به، فمن حق الغالم على الأقل أن يساند إخوانه الضعفاء فى الكنيسة الذين يسهل افتضاحهم بأشياء صغيرة»[2].

ولم تجد «الموضوعية» التى كان يبحث عنها بطرس الموقر تجاوبًا فى ذلك الزمان على الرغم من أنها لم تكن موضوعية بالمعنى الصحيح، وإنما يمكن أن تعد «موضوعية موجهة» إن صح التعبير.

يقول (رودى بارت):

«حقيقة أن العلماء ورجال اللاهوت فى العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى فى تعرفهم على الإسلام، وكانوا يتصلون بها على نطاق واسع، ولكن كل محاولة لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعى نوعًا ما، كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل فى أن هذا الدين المعادى للنصرانية لا يمكن أن يكون فيه خير. وهكذا كان الناس لا يولون تصديقهم إلا لتلك المعلومات التى تتفق مع هذا الرأى المتخذ من قبل، وكانوا يتلقفون كل الأخبار التى تلوح لهم مسيئة إلى النبى العربى وإلى دين الإسلام»[3].

ويمكن القول بصفة عامة بأنه قد كان هناك فى هذه الفترة المبكرة للاستشراق اتجاهان مختلفان فيما يتعلق بالأهداف والمواقف إزاء الإسلام. أما الاتجاه الأول، فقد كان اتجاهًا لاهوتيًا متطرفًا فى جدله العقيم، ناظرًا إلى الإسلام من خلال ضباب كثيف من الخرافات والأساطير الشعبية. أما الاتجاه الثانى، فقد كان نسبيًا بالمقارنة إلى الاتجاه الأول أقرب إلى الموضوعية والعلمية، ونظر إلى الإسلام بوصفه مهد العلوم الطبيعية والطب والفلسفة. ولكن الاتجاه الخرافى ظل حيًا حتى القرن السابع عشر وما بعده[4]. ولا يزال هذا الاتجاه للأسف حيًا فى العصر الحاضر فى كتابات بعض المستشرقين عن الإسلام ونبيه.

---

(١) هكذا ورد النص وهو مخالف لما ورد فى القرآن الكريم من أن داود هو الذى كان يصنع الأسلحة، وما هو معروف من أن سليمان هو الذى صنع الزينات للهيكل.

(٢) انظر: ساذرن ٥٦/ ٥٧، وتراث الإسلام ١/ ٣٨.

(٣) انظر: رودى بارت ٩، ١٠.

(٤) انظر: Bosworth.

الثقافة العربية فى قصر الإمبراطور

وبين حين وآخر كان يظهر هناك بعض شخصيات أوروبية مستنيرة لها وزنها تتخذ إزاء الإسلام بعض المواقف الإيجابية. ومن بين هؤلاء القلائل الذين كانوا يتبنون إزاء الإسلام موقفًا أقرب إلى الاعتدال نجد فريدريك الثانى حاكم صقلية الذى أصبح إمبراطوراً لألمانيا عام ١٢١٥م. وقد كان فريدريك هذا يعرف العربية، ويتشبه بالعرب فى لباسهم وعاداتهم ويتحمس للفلسفة والعلوم العربية. وقد كانت هذه العلوم تدرس بشغف فى قصره فى (بالرمو) وبذلك أصبحت فى متناول اللاتينيين. وقد أهدى هذا الإمبراطور وابنه (مانفرد) إلى جامعات بولونيا وپاريس ترجمات لكتب فلسفية مترجمة عن العربية. وفى عام ١٢٢٤م أسس الإمبراطور جامعة ناپولى، وجعل منها أكاديمية لإدخال العلوم العربية إلى العالم الغربى[(١)].

وقد كان نصيب هذا الإمبراطور أن طرده البابا «جريجورى التاسع ـ Gregory IX» من الكنيسة عام ١٢٣٩م. وقد كانت إحدى التهم التى وجهت إليه هى ما يبديه من مظاهر الود تجاه الإسلام[(٢)].

---

(١) راجع: تاريخ الفلسفة فى الإسلام لديبور ص ٤١٧، والفكر العربى ومركزه فى التاريخ تأليف أوليرى وترجمة إسماعيل البيطار ص ٢٣٧ وما بعدها ـ دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت ١٩٧٢م.

(٢) تراث الإسلام ١/ ٤٨.

الاستشراق والتنصير

إذا كان الاستشراق لا يقوم إلا على أساس معرفة اللغات الشرقية التى هى الوسيلة للتعرف على عقائد وحضارات الشرق فإن التنصير يتفق مع الاستشراق فى هذا الصدد، ويحتم أيضًا معرفة لغات من يراد تنصيرهم، وقد كان هناك اقتناع تام لدى دعاة التنصير فى القرن الثالث عشر بضرورة تعلم لغات المسلمين، إذا أريد لمحاولات تنصير المسلمين أن تؤتى ثمارها بنجاح. وقد كان هذا الاقتناع ـ الذى ترجم فيما بعد إلى خطة عمل ـ عاملاً هامًا بالنسبة لتطور الاستشراق. ولم يكن من السهل فى ذلك الزمان فصل الاستشراق عن التنصير أو عن الدافع الدينى بصفة عامة، فالدافع الدينى كان هو السبب الأول فى نشأة الاستشراق.

وقد كان من بين الدعاة المتحمسين الذين طالبوا بضرورة تعلم لغات المسلمين لغرض التنصير (روجر بيكون) [١٢١٤م ـ ١٢٩٤م] الذى كان يرى أن التنصير هو الطريقة الوحيدة التى يمكن بها توسيع رقعة العالم المسيحى. ولبلوغ هذا الغرض لا بد من توفر شروط ثلاثة هى:

١ـ معرفة اللغات الضرورية.

٢ـ دراسة أنواع الكفر وتمييز بعضها من بعضها الآخر.

٣ـ دراسة الحجج المضادة حتى يمكن دحضها[١].

وقد شارك بيكون فى أفكاره (رايموند لول ـ Raymond Lull)[٢] (١٢٣٥م ـ ١٣١٦م) الذى ولد فى جزيرة ميورقة الإسپانية وتعلم العربية على يد عبد عربى، وكانت له

---

(١) ساذرن: ص ٧٦.

(٢) انظر أيضًا رينان: ابن رشد.. ص ٢٦٧ وما بعدها.

جهود كبيرة فى إنشاء كراسى لتدريس اللغة العربية فى أماكن مختلفة . وكان الهدف من كل هذه الجهود فى ذلك العصر وفى العصور التالية هو التنصير، وهو إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام واجتذابهم إلى الدين النصرانى(١) .

وقد صادق مجمع «ڤيينا» الكنسى عام ١٣١٢م على أفكار بيكون ولول بشأن تعلم اللغات الإسلامية، وتمت الموافقة على تعليم اللغة العربية فى خمس جامعات أوروبية هى : جامعات باريس، وأكسفورد، وبولونيا، وسلمنكا، بالإضافة إلى جامعة المدينة البابوية (Kurie) . وقدر لرايموند لول أن يعيش حتى يشهد تحقيق حلم طالما نادى به، وكان يعتقد أن الوقت بذلك قد حان لإخضاع المسلمين عن طريق التنصير، وبذلك تزول العقبة الكبيرة التى تقف فى سبيل تحويل الإنسانية كلها إلى العقيدة الكاثوليكية(٢) .

وقد ساعد على تقدم الدراسات الاستشراقية فى نهاية العصر الوسيط تلك الصلات السياسية والدبلوماسية مع الدولة العثمانية التى اتسعت رقعتها حينذاك . وكان للروابط الاقتصادية لكلٍّ من إسبانيا وإيطاليا مع كلٍّ من تركيا وسورية ومصر أثر كبير فى دفع حركة الدراسات الاستشراقية .

وفى القرن السادس عشر الميلادى وما بعده أدت النزعة الإنسانية فى عصر النهضة الأوروبية إلى دراسات أكثر موضوعية من ذى قبل، ومن ناحية أخرى شجعت البابوية الرومانية دراسات لغات الشرق من أجل مصلحة التنصير .

وفى عام ١٥٣٩م تم إنشاء أول كرسى للغة العربية فى الكوليج دى فرانس فى باريس وشغل هذا الكرسى جيوم بوستل Guillaume Postel [ت١٥٨١م] الذى يعد أول المستشرقين الحقيقيين . وقد أسهم كثيراً فى إثراء دراسة اللغات والشعوب الشرقية فى أوروبا، وجمع فى الوقت نفسه وهو فى الشرق مجموعة هامة من المخطوطات . وقد سار على نهجه تلميذه (جوزيف إسكاليجر Joseph Scaliger [ت١٦٩١]) .

ولكن عمل بوستل لم يكن أبداً منقطع الصلة بجهود التنصير . صحيح أنه يمتدح ثراء العربية، وبوجه خاص فى المؤلفات الطبية والفلكية، ويقول :

---

(١) رودى بارت : ص ٩ .

(٢) Johann Fueck: Die arabischen Studien in Europa, Leipzig 1955, p. 21-22.

«ليس هناك أحد يستطيع أن يرفض وسائل علاج الطب العربى، فابن سينا يقول فى صفحة واحدة أو صفحتين أكثر مما يقوله جالينوس فى خمسة أو ستة مجلدات كبيرة».

ولكن بوستل يذكِّر أيضًا بقرار مجمع «فيينا» الكنسى الذى سبق أن أشرنا إليه. ويجمل قيمة معرفة اللغة العربية بقوله:

«... إنها تفيد بوصفها لغة عالمية فى التعامل مع المغاربة والمصريين والسوريين والفرس والأتراك والتتار والهنود، وتحتوى على أدب ثرى، ومن يجيدها يستطيع أن يطعن كل أعداء العقيدة النصرانية بسيف الكتاب المقدس، وأن ينقضهم بمعتقداتهم التى يعتقدونها. وعن طريق معرفة لغة واحدة (العربية) يستطيع المرء أن يتعامل مع العالم كله».

وقد كان يتباهى بأنه يستطيع عبور آسيا وبلوغ الصين دون مترجم(١).

وفى عام ١٥٨٦م أصبح من السهل طباعة الكتب العربية فى أوروبا عن طريق المطابع التى أقامها «الكاردينال فرديناند المديسى - Ferdinand de Medici» دوق «تسكانيا - Tuscany» الكبير. وقد تم حينذاك طباعة كتب عربية مختلفة من بينها مؤلفات ابن سينا فى الطب والفلسفة(٢).

وفى القرن السابع عشر بدأ المستشرقون فى جمع المخطوطات الإسلامية، وأنشئت كراسى للغة العربية فى أماكن مختلفة. ومما هو جدير بالذكر أن قرار إنشاء كرسى اللغة العربية فى جامعة كمبردج عام ١٦٣٦م قد نص صراحة على خدمة هدفين: أحدهما تجارى، والآخر تنصيرى. فقد جاء فى خطاب للمراجع الأكاديمية المسئولة فى جامعة كمبردج بتاريخ ٩ مايو (أيار) ١٦٣٦م إلى مؤسس هذا الكرسى ما يأتى:

«... ونحن ندرك أننا نهدف من هذا العمل إلى الاقتراب من الأدب الجيد بتعريض جانب كبير من المعرفة للنور بدلاً من احتباسه فى نطاق هذه اللغة التى نسعى لتعلمها، ولكننا نهدف أيضًا إلى تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية، وإلى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن فى الظلمات».

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩، ٤٠ - وإدوارد سعيد ص ٨١.
(٢) Johann Fueck: op.cit, p, 53-54 وأيضًا Bosworth, op.cit

ومن هذا يتضح أنه قد كان هناك تجاوب متبادل بين الاستشراق والتنصير إن لم يكن هناك تماثل فى القصد بين المستشرق الأكاديمي والمبشر الإنجيلى. ويمكن القول بأن التحالف بين الجانبين لا يزال مستمراً بشكل من الأشكال حتى العصر الحاضر[(١)].

ومن بين الشخصيات التى كان لها أثر كبير فى إرساء دعائم الدراسات العربية فى أوروبا المستشرق (توماس إربنيوس ـ Thomas Erpenius) [١٥٨٤ ـ ١٦٢٤م] الذى كان أول أستاذ يشغل كرسى اللغة العربية فى جامعة ليدن (١٦١٣م). وقد استطاع عن طريق جهوده العلمية ومؤلفاته فى النحو العربى أن يجعل لهولندا مكان الصدارة فى الدراسات العربية فى أوروبا لما يقرب من قرنين من الزمان.

أما موقفه من الإسلام، فإنه على الرغم من أنه كان يرى أن القرآن يعد قمة من حيث اللغة إلا أنه لم يكن يرى فيه من حيث المضمون شيئًا أكثر من تقليد مضحك للكتاب المقدس. وكان رأيه فى النبى ﷺ وتعاليمه متفقًا تمامًا مع ذلك النفور الذى كان سائداً حينذاك فى الغرب إزاء النبى العربى ﷺ وتعاليمه[(٢)].

* * *

---

(١) راجع بحثًا للأستاذ طيباوى بعنوان «المستشرقون الناطقون بالإنجليزية». وقد نشر البحث فى مجلة العالم الإسلامى «The Muslim World» فى يوليو (تموز) ١٩٦٣م، وترجمه الدكتور فتحى عثمان إلى العربية.
ونظراً لأهمية هذا البحث ألحقه الدكتور محمد البهى بكتابه الفكر الإسلامى الحديث من ص ٥٨١ إلى ٦١٢.

(٢) Fueck, op.cit.p.68/69.

محاولات جادة نحو فهم الإسلام

وعلى الرغم من هذه الأهداف التنصيرية الواضحة والمعادية فى طبيعتها للإسلام، فقد شهدت نهاية القرن السابع عشر من ناحية أخرى اتجاهًا آخر مختلفًا استمر أيضًا فى القرن الثامن عشر، وقد نظر هذا الاتجاه إلى الإسلام نظرة موضوعية محايدة، فيها شيء من التعاطف مع الإسلام. وقد شجع على ذلك ظهور النزعة العقلية الجديدة التى بدأت تسود أوروبا حينذاك، والتى كانت فى عمومها مخالفة للكنيسة.

وهكذا سنحت الفرصة أمام بعض العقلاء من الأوروبيين للوقوف فى وجه الظلم والإجحاف الذى لقيه الإسلام فى الغرب فى القرون الوسطى، وظهرت بعض المؤلفات العامة المعتدلة عن الإسلام والحضارة الإسلامية، وحل محل الآراء التى تبناها اللاهوتيون حتى ذلك الوقت والتى تمثلت فى وصف محمد ﷺ بأنه شيطان، وفى وصف القرآن الكريم بأنه مزيج من اللغو الباطل - حل محلها آراء أخرى أقل عنفًا وأقرب إلى الاعتدال والإنصاف للإسلام والمسلمين.

ومن بين الأمثلة على ذلك (ريتشارد سيمون - Richard Simon)، فقد تناول فى كتابه (التاريخ النقدى لعقائد وعادات أمم الشرق) - ١٦٨٤م - عادات وعقائد المسلمين فى وضوح واتزان مستندًا فى عرضه لها على مرجع لأحد علماء المسلمين، مبديًا تقديره وإعجابه بالعادات الإسلامية. وقد اتهمه (أرنولد - Arnould) بأنه كان فى حديثه عن الإسلام موضوعيًا أكثر من اللازم، فنصحه سيمون بأن يتأمل التعاليم الأخلاقية الرائعة للأخلاقيين الإسلاميين.

وكان الفيلسوف (بيير بايل - Pierre Bayle) من المعجبين بالتسامح الإسلامى، وقد ظهر أثر ذلك فى عرضه لحياة محمد ﷺ فى قاموسه التاريخى والنقدى الذى ظهرت طبعته الأولى فى روتردام عام ١٦٩٧م. أما (سيمون أوكلى - Simon Ockley)

[١٦٧٨ ـ ١٧٢٠م] فإن كتابه «تاريخ السراسنة» (أى العرب المسلمين) يعد نسبيًا غير متحيز، وقد مجد فى هذا الكتاب الشرق الإسلامى ورفعه فوق الغرب[١].

وتعد هذه الأمثلة المشار إليها أمثلة رائدة فى هذا الاتجاه الجديد نحو الفهم الصحيح للإسلام. أما أول المحاولات العلمية الجادة للتعرف على الإسلام، فقد كانت على يد (هادريان ريلاند Hadrian Reland) [ت١٧١٨م] أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة أوترشت بهولاندا. فقد صدر كتابه باللغة اللاتينية عن الإسلام عام ١٧٠٥م بعنوان «الديانة المحمدية» فى جزأين: عرض فى أولهما العقيدة الإسلامية معتمداً على مصادر بالعربية واللاتينية. وفى الجزء الثانى قام بتصحيح الآراء الغربية التى كانت سائدة حينذاك عن تعاليم الإسلام. وقد أثار الكتاب اهتمامًا عظيمًا لدرجة أدت إلى إثارة الشبهات حول المؤلف باتهامه بأنه يريد القيام بعمل دعائى للإسلام، فى حين أنه لم يكن يقصد إلا الوصول إلى فهم الدين الإسلامى فهمًا صحيحًا ممهداً بذلك السبيل إلى محاربته من جانب النصرانية بطريقة أفضل من ذى قبل.

ولكن الكنيسة الكاثوليكية أدرجت الكتاب فى قائمة الكتب المحرم تداولها. وعلى الرغم من ذلك ترجم الكتاب إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والهولندية والإسبانية. ويشير ريلاند فى مقدمة الكتاب إلى ما تتعرض له كل الأديان باستمرار من جانب خصومها، إما بعدم فهمها أو برميها بكل سوء بطريقة تنبئ عن قصد خبيث. وقد تعرض الإسلام إلى مثل ذلك من جانب خصومه مثلما تعرضت الأديان الأخرى.

ويقول ريلاند: (إن المرء يصح له أن يبحث عن الحقيقة حيثما كانت).

ولهذا يريد أن يعرض الإسلام لا كما يظهر من خلال ضباب الجهل وخبث الناس، وإنما كما يدرس حقيقة فى مساجد المسلمين ومدارسهم. فلم يحدث أن تعرض دين من الأديان فى هذا العالم فى أى عصر من العصور إلى مثل ما تعرض له الإسلام من جانب خصومه من الاحتقار والتشويه والوصف بكل أوصاف السوء. وقد وصل الأمر

---

(١) ولكن وصف أوكلى للنبى ﷺ بأنه (رجل خبيث جداً وماكر، وأن ما كان يبديه من شمائل طيبة كانت مجرد أمر ظاهرى يخفى وراءه حقيقة نفسه التى كان يحكمها الطموح والطمع). هذا الوصف أسقط المؤلف مرة أخرى فى بؤرة المواقف اللاهوتية السابقة (انظر: تراث الإسلام ١/ ٦٤ ـ ٦٧، وأيضًا «Bosworh» فى المرجع السابق).

إلى حد أن من يريد أن يصف نظرية من النظريات بوصف مشين، يصفها بأنها نظرية محمدية. . كما لو كان الأمر أنه لا يوجد فى تعاليم محمد شىء صحيح، وأن كل ما فيها فاسد. وإذا أبدى أحد رغبة صادقة فى التعرف على الإسلام لا تقدم إليه إلا الكتب المضادة الخبيثة والمليئة بالضلالات. ويضيف ريلاند قائلاً:

«. . . ينبغى على المرء بدلاً من ذلك أن يتعلم اللغة العربية، وأن يسمع محمداً نفسه وهو يتحدث فى لغته، كما ينبغى على المرء أن يقتنى الكتب العربية وأن يرى بعينيه هو وليس بعيون الآخرين، وحينئذ سيتضح له أن المسلمين ليسوا مجانين كما نظن. فقد أعطى الله العقل لكل الناس، وقد كان فى رأيى دائمًا أن ذلك الدين الذى انتشر انتشاراً بعيداً فى آسيا وإفريقيا وفى أوروبا أيضًا ليس دينًا ماجنًا أو دينًا سخيفًا، كما يتخيل كثير من المسيحيين».

وبعد ذلك يقول ريلاند:

«. . . صحيح أن الدين الإسلامى دين سىء جداً وضار بالمسيحية إلى حد بعيد. ولكن، أليس من حق المرء لهذا السبب أن يبحثه؟ ألا ينبغى للمرء أن يكتشف أعماق الشيطان وحيله؟

إن الأحرى هو أن يسعى المرء للتعرف على الإسلام فى حقيقته لكى يحاربه بطريقة أكثر أمانًا وأشد قوة»[1].

ونعتقد أن عبارات ريلاند الأخيرة هذه كانت مجرد ذر للرماد فى العيون حماية لنفسه من بطش الكنيسة التى لم تقتنع بهذه المبررات، فحرمت تداول الكتاب لأنها لم تكن تريد للحقيقة أن ترى النور حتى يطلع عليها جمهور الناس.

وقد شهد القرن الثامن عشر أيضًا أنموذجًا آخر رائداً فى عالم الاستشراق الألمانى ممثلاً فى (يوهان ج. رايسكه - J.J.Reiske) [١٧١٦ - ١٧٧٤م] الذى كان واحداً من عباقرة علماء العربية فى عصره وأول مستشرق ألمانى جدير بالذكر، وإليه يرجع الفضل فى إيجاد مكان بارز للدراسات العربية فى ألمانيا. ولكن عصره ومعاصريه تجاهلوه وحاربه رجال اللاهوت متهمينه بالزندقة، ولعل ذلك يرجع إلى موقفه الإيجابى من

---

(١) Gustav Pfannmueller: Handbuch der Islamliteratur, Berlin 1923, p.64/63.

الإسلام . . فقد امتدح الدين الإسلامي في كتاب له باللاتينية ، ورفض وصف النبي ﷺ بالكذب أو التضليل ، أو وصف دينه بأنه خرافات مضحكة - كما كان ذلك سائدًا حينذاك - كما رفض تقسيم تاريخ العالم إلى تاريخ مقدس وتاريخ غير مقدس ، ووضع العالم الإسلامي في قلب التاريخ العالمي . وفوق ذلك عبر عن آرائه بأعظم قدر من الصراحة ، غير مكترث بكل العواقب المترتبة على ذلك . وقد جر عليه ذلك ويلات كثيرة ، وعاش طول حياته في ضائقة مالية ، ومات بائسًا مسلولاً وهو في الثامنة والخمسين من عمره .

وقد قال عنه (فوك) :

«لقد أصبح شهيد الأدب العربي ، وصارت حياته تاريخًا لتلك الآلام التي سجلها في مذكراته . . وقد كان من المخجل أن أحدًا من الرجال البارزين (في عصره) لم يعرف الأهمية الفائقة لهذا الرجل العبقري الذي كان وحدًا من أعظم علماء العربية»[1] .

ولكن هذه الأمثلة من المحاولات الجادة في التعرف على الإسلام عن قرب وبلا أحكام سابقة لم تستطع أن ترسخ في الفكر الأوروبي تيارًا عامًا ، ولم تستطع بالتالي أن تقضي تمامًا على الصورة المشوهة للإسلام في أذهان الأوروبيين بصفة عامة ، تلك الصورة التي رسختها القرون الوسطى في الأذهان ، والتي لا تزال آثارها عالقة بالعقول حتى اليوم . فقد بقيت الصورة في إطارها العام على مر العصور كما هي ، وإن حدث فيها بين الحين والحين - بفعل بعض الظروف - بعض التعديل في الظلال والألوان «والرتوش» الخفيفة . والدليل على ذلك هو أن صورة الإسلام في أذهان الأوروبيين لا تزال حتى اليوم صورة مشوهة بعيدة عن الحقيقة . ولسنا ننكر أن الاستشراق في ذلك العصر بدأ يتخفف من أثقال اللاهوت وأن حدة الاتهامات ضد الإسلام قد خفت عن ذي قبل . كما أعيد النظر في الاتهامات السابقة ، ولكن هذا الانفتاح الفكري كان في محصلته النهائية محدود الأثر ، وإن كان من وجهة نظر مكسيم رودنسون يمثل تحولاً كبيرًا .

وفي هذا الصدد يقول :

« . . . والواقع أن القرن الثامن عشر كان ينظر إلى الشرق الإسلامي نظرة أخوية

---

(١) Fueck, op. cit, 117,124.

متفهمة. وقد مكنت الفكرة القائلة بتساوى المواهب الطبيعية لدى جميع الناس والتى ساعد على انتشارها تفاؤل يفيض بالحيوية كان هو الدين الحقيقى لذلك العصر ـ مكنت الناس من القيام بدراسة نقدية للتهم التى وجهتها العصور السابقة إلى العالم الإسلامى. . ففى عصر التنوير أصبح المسلمون يعتبرون أناسًا مثل غيرهم، وكثير منهم كانوا يفضلون على الأوروپيين»[1].

وإذا سلمنا بما يقوله رودنسون فى هذا الصدد فإنه هو نفسه لا ينكر أن تلك النظرة التى يتحدث عنها هنا تحولت فيما بعد إلى نظرة أسوأ من ذى قبل، وفى ذلك يقول:

«وفى القرن التاسع عشر كان الشرق الإسلامى لا يزال عدوًا، ولكنه عدو محكوم عليه بالهزيمة، وكانت البلاد الشرقية أشبه بالشهود المنهارين لماض عريق.

فقد كان المرء يستطيع أن يستمتع بترف امتداحهم فى الوقت الذى كان فيه السياسيون ورجال الأعمال يفعلون كل ما فى وسعهم للإسراع فى انهيارهم. ولم يكن إمكان صحوهم ولحاقهم بالعصر الحديث يثير أية حماسة، بل إنهم يفقدون فى خلال عملية تحديثهم نكهة الغرابة التى كانت مبعث سحرهم»[2].

وقد أدى ذلك إلى تغيير فى نظرة الغربى إلى الشرقى، إذ أصبح الشرقى فى نظر الغربى فى القرن التاسع عشر ـ كما يقول رودنسون أيضًا:

«. . . مخلوقًا مختلفًا بعد أن كان فى ظل أيديولوچية الثورة الفرنسية إنسانًا قبل كل شىء، أصبح الآن سجين خصوصيته وموضوعًا للثناء الذى يمن به عليه بعضهم»[3].

وهكذا بعد أن كانت النظرة الأوروپية ـ التى كانت توجهها الأيديولوچية العالمية للعصر ـ تحترم غير الأوروپيين وتحترم ثقافتهم، أصبحت الآن ـ فى القرن التاسع عشر ـ نظرة متعالية متغطرسة، وظهرت نظريات تقسم الشعوب إلى أجناس راقية وأجناس متخلفة، فالأولى شعوب آرية، والثانية شعوب سامية، وانبرى (رينان) ومن سار على

---

(١) تراث الإسلام ١/ ٦٨.
(٢) المرجع السابق ١/ ٨٠.
(٣) المرجع السابق ١/ ٨٠.

نهجه من المستشرقين والمفكرين الأوروبيين لبيان ما يزعمونه من خصائص للآريين صناع الحضارة وحملة الإبداع الخلاق، والساميين السطحيين فى تفكيرهم وفلسفاتهم[1].

ونكتفى الآن بهذا القدر من الاستطراد حول هذه النقطة لنستكمل الحديث عن تطور الاستشراق فى العصر الحديث. ولنا عودة للحديث مرة أخرى عن النظرة الغربية للشرق الإسلامى عند الحديث عن صلة الاستشراق بالاستعمار.

* * *

---

(١) راجع على سبيل المثال: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفى عبدالرازق ص ٩ وما بعدها - القاهرة ١٩٦٦م. وانظر أيضًا: المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية من تأليف جوتييه وترجمة الدكتور محمد يوسف موسى. ص ٦ وما بعدها، وص ١٤ وما بعدها - القاهرة ١٩٤٥م.

عصر ازدهار الاستشراق

يعد القرن التاسع عشر والقرن العشرون عصر الازدهار الحقيقى للحركة الاستشراقية. ففى نهاية القرن الثامن عشر، وبالتحديد فى شهر مارس (آذار) من عام ١٧٩٥م قامت الحكومة الثورية فى پاريس بإنشاء مدرسة اللغات الشرقية الحية. وقد كان التركيز فيها على وجه الخصوص على عنصر الفائدة العملية، بالإضافة إلى ما يمكن أن تسهم به اللغات الشرقية فى تقدم الأدب والعلم[١]. وبدأت حركة الاستشراق فى فرنسا تتجه نحو اتخاذ طابع علمى على يد (سلڤستر دى ساسى - Silvestre de Sacy) (ت١٨٣٨م) الذى أصبح إمام المستشرقين فى عصره، وإليه يرجع الفضل فى جعل پاريس مركزاً للدراسات العربية وكعبة يؤمها التلاميذ والعلماء من مختلف البلاد الأوروبية ليتعلموا على يديه[٢].

وكانت غالبية جهود (دى ساسى) العلمية منصبة على الدراسات العربية فى النحو والأدب شعراً ونثراً، وليست له دراسات حول الإسلام، وقد أصبحت مدرسة اللغات الشرقية الحية فى عهده تعد الأنموذج لمؤسسة الاستشراق العلمى والعلمانى وخاصة بعد أن كان قد تم فى القرن الثامن عشر انفصال الاستشراق عن اللاهوت فى كلٍّ من فرنسا وإنجلترا.

---

(١) Fueck, op. cit.p.142.

(٢) المرجع السابق ص ١٥٢، ١٥٥ وما بعدها. وقد استخدم ناپليون فى حملته المشهورة على مصر عدداً كبيراً من المترجمين من تلاميذ دى ساسى. انظر إدوارد سعيد ١٠٩. ومما هو جدير بالذكر أن رفاعة الطهطاوى اتصل بالبارون دى ساسى أثناء إقامته فى پاريس وأفاد كثيراً من صحبته. كما يشير إلى ذلك الشيخ مصطفى عبد الرازق فى مقدمته لكتاب المدخل إلى الفلسفة الإسلامية تأليف جوتييه وترجمة د. محمد يوسف موسى.

أما البلاد التى كانت تسود فيها اللغة الألمانية، فقد كانت الجامعات فيها لا تزال حتى ذلك الوقت تحت سيطرة علماء اللاهوت. ولهذا السبب ظهر الاستشراق العلمانى فى ألمانيا والنمسا فى بداية الأمر على يد هواة كان أبرزهم العالم النمساوى (جوزيف فون هامر برجشتال ـ J.V.Hammer - Purgstall) (ت١٨٥٦م).

وهكذا يمكن القول - كما يقول بارت: بأن الاستشراق قد تشكل كعلم فى القرن التاسع عشر، وذلك:

«عندما تأكد استعداد الناس للانصراف عن الآراء المسبقة وعن كل لون من ألوان الانعكاس الذاتى، والاعتراف لعالم الشرق بكيانه الذى تحكمه نظمه الخاصة، وعندما اجتهدوا فى نقل صورة موضوعية له ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً»[1].

ومن ذلك يتضح أنه بتخليص الاستشراق من سيطرة اللاهوت أصبح علمًا قائمًا بنفسه هدفه دراسة اللغات الشرقية وآدابها، وبرزت هناك نزعة علمية تتجه إلى دراسة الآداب والعقائد الشرقية لذاتها مستهدفة المعرفة وحدها[2]. أما مدى نجاح هذه النزعة فى التحرر نهائيًا من التعصب الدينى، فهذه مسألة سنقف على حقيقتها فى الفصل الثانى إن شاء الله.

أما متى بدأ هذا الاتجاه الجديد على وجه التحديد، فإن هذا أمر لا يمكن القطع فيه برأى على وجه الدقة، وإن كان يمكن اعتبار منتصف القرن التاسع عشر بداية لظهور تلك الصفة العلمية ـ كما يقول بارت:

«فإذا وضعنا بقصد التبسيط منتصف القرن التاسع عشر، فإننا نعنى بهذا فقط أن الصفة العلمية بالمعنى الحديث ظهرت فى هذا الوقت على الاستشراق بوضوح أكثر من ذى قبل. ولكن النية المتجهة إلى فهم الموضوعات فهمًا موضوعيًا، كانت موجودة قبل ذلك بكثير وجودًا يمكن إثباته بالأدلة والشواهد، وكانت أوضح ما تكون فى مجالات الدراسات اللغوية ودراسات اللغة العربية خاصة... وهذا هو السبب الذى يظل من

---

(١) بارت ص ١٧.

(٢) د. إبراهيم اللبان: المستشرقون والإسلام. ص١٥ (ملحق بمجلة الأزهر صفر ١٣٩٠هـ ـ إبريل (نيسان) ١٩٧٠م.

أجله المستشرقون العاملون فى الصعيد اللغوى، بمنأى عن هجوم الرأى العام العربى الإسلامى فى أيامنا هذه، بينما يتهم المستشرقون العاملون فى صعيد الدراسات الإسلامية بسوء النية فى أحوال ليست بالنادرة»(١) .

وفى نهاية القرن التاسع عشر أصبحت الدراسات الإسلامية تخصصًا قائمًا بذاته داخل الحركة الاستشراقية العامة . وكان كثير من علماء الإسلاميات والعربية فى ذلك الوقت - مثل : نولدكه ، وجولد تسيهر ، وفلهاوزن - مشهورين فى الوقت نفسه بوصفهم علماء فى الساميات على وجه العموم أو متخصصين فى الدراسات العبرية أو فى دراسة الكتاب المقدس(٢) .

* * *

(١) بارت ص ١٧ .

(٢) Bosworth, op. cit.

من مظاهر النشاط الاستشراقى

بدأ المستشرقون فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى مختلف بلدان أوروپا وأمريكا بإنشاء جمعيات لمتابعة الدراسات الاستشراقية. فقد تأسست أولاً الجمعية الآسيوية فى پاريس عام ١٨٢٢م، ثم الجمعية الملكية الآسيوية فى بريطانيا وإيرلندا عام ١٨٢٣م، والجمعية الشرقية الأمريكية عام ١٨٤٢م، والجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٤٥م[١].

وسرعان ما نشطت هذه الجمعيات فى إصدار المجلات والمطبوعات المختلفة. وقد أصدر (هامر برجشتال) أول مجلة استشراقية متخصصة فى أوروپا وهى مجلة (ينابيع الشرق) التى صدرت فى ڤيينا من عام ١٨٠٩م إلى عام ١٨١٨م.

وفى عام ١٨٩٥م ظهرت فى پاريس مجلة تمنح اهتمامها بصفة خاصة للعالم الإسلامى وهى مجلة الإسلام، وقد خلفتها فى عام ١٩٠٦م مجلة العالم الإسلامى التى صدرت عن البعثة العلمية الفرنسية فى المغرب، وقد تحولت بعد ذلك إلى مجلة الدراسات الإسلامية.

وفى عام ١٩١٠م ظهرت مجلة الإسلام الألمانية - Der Islam، وفى بطرسبرج بـ«روسيا» ظهرت مجلة عالم الإسلام - Mir Islama عام ١٩١٢م، ولكنها لم تعمر إلا وقتًا قصيرًا. وفى بريطانيا ظهرت مجلة العالم الإسلامى عام ١٩١١م على يد صمويل زويمر (ت١٩٥٢م) الذى كان رئيس المبشرين فى الشرق الأوسط[٢].

---

(١) قررت هذه الجمعية فى ربيع ١٩٦١م إنشاء معهد ألمانى للأبحاث الشرقية فى بيروت. ولهذا المعهد نشاط ملحوظ، ويقوم بانتظام بإصدار سلسلتين عن الدراسات الإسلامية والعربية معًا: «النشرات الإسلامية» و«نصوص ودراسات» ولديه مكتبة بها أكثر من ستين ألف مجلد. وقد تعاقب على إدارة هذا المعهد عدد من المستشرقين الذين يشغلون اليوم عددًا من كراسى الاستشراق فى الجامعات الألمانية.

(٢) هذا يؤكد ما سبق أن ذكرناه من أن علاقة الاستشراق بالتنصير لم تنقطع حتى الآن.

وللمستشرقين اليوم من المجلات والدوريات عدد هائل يزيد على ثلاثمائة مجلة متنوعة بمختلف اللغات[١].

وقد شهد القرن التاسع عشر أيضًا بداية المؤتمرات الدولية للمستشرقين. وقد أتاحت هذه المؤتمرات للمستشرقين فى كل مكان الفرصة لزيادة التنسيق وتوثيق أواصر التعاون، والتعرف بصورة مباشرة على أعمال بعضهم بعضًا، وتجنب ازدواج العمل حرصًا على تجميع الجهود وعدم تبديدها فى أعمال مكررة.

وقد تم عقد أول مؤتمر دولى للمستشرقين فى باريس عام ١٨٧٣م، وتعقد هذه المؤتمرات منذ ذلك الحين بصفة منتظمة. وقد بلغ عددها حتى الآن أكثر من ثلاثين مؤتمرًا. وهذا عدا المؤتمرات والندوات واللقاءات الإقليمية التى يرجع بعضها إلى تاريخ أقدم من تاريخ أول المؤتمرات الدولية. فقد عقد أول مؤتمر للمستشرقين الألمان فى مدينة درسدن بألمانيا فى عام ١٨٤٩م. ولا تزال مثل هذه المؤتمرات تعقد بانتظام حتى اليوم[٢].

وتضم هذه المؤتمرات الدولية للمستشرقين مئات العلماء. فمثلاً مؤتمر أكسفورد كان يضم تسعمائة عالم من خمس وعشرين دولة، وخمس وثمانين جامعة، وتسع وستين جمعية علمية. ومجموعات العمل فى كل مؤتمر تبلغ أربع عشرة مجموعة، تختص كلٌّ منها ببحث مجال معين من الدراسات الاستشراقية. وتنشر بحوث هذه المؤتمرات فى مجلدات «للاهتداء بها كنظم ومناهج ووسائل، ثم أصبحت ـ مع دراسات مؤتمراتهم الموضوعية والإقليمية ـ أصولاً وأمهات وأسانيد للباحثين»[٣].

* * *

---

(١) انظر القوائم التى أوردها نجيب العقيقى بأسماء هذه المجلات فى الجزء الثالث من كتابه «المستشرقون» من ص ٣٧٧ إلى ٣٨٨.

(٢) Bosworth, op.cit.

(٣) راجع العقيقى ٣/ ٣٦٥ وما بعدها.

الاستشراق والاستعمار

لقد كان للمد الاستعمارى فى العالم الإسلامى دور كبير فى تحديد طبيعة النظرة الأوروبية إلى الشرق وخصوصًا بعد منتصف القرن التاسع عشر . وقد أفاد الاستعمار من التراث الاستشراقى، ومن ناحية أخرى كان للسيطرة الغربية على الشرق دورها فى تعزيز موقف الاستشراق، وتواكبت مرحلة التقدم الضخم فى مؤسسات الاستشراق وفى مضمونه مع مرحلة التوسع الأوروبى فى الشرق(١) .

وقد شهد القرن التاسع عشر استيلاء المستعمرين الغربيين على مناطق شاسعة من العالم الإسلامى .

ففى عام ١٨٥٧م تم استيلاء الإنجليز سياسيًا على الهند، وأصبحت الهند بذلك تابعة للتاج البريطانى رسميًا، بعد أن كانت حتى ذلك الحين واقعة تحت نفوذ شركة الهند الشرقية منذ القرن السابع عشر . وفى عام ١٨٥٧م أيضًا تم استيلاء فرنسا على الجزائر كلها بعد أن كان الفرنسيون قد بدءوا غزوها عام ١٨٣٠م . كما احتلت هولندا قبل ذلك ـ فى بداية القرن السابع عشر ـ جزر الهند الشرقية (إندونيسيا) عن طريق شركة الهند الهولندية . وبعد عام ١٨٨١م تم احتلال مصر وتونس . وظل الاستعمار يقوم بتقطيع أوصال البلاد الإسلامية شيئًا فشيئًا ويضعها تحت سيادته حتى استطاع فى النهاية أن يطوق العالم الإسلامى من الشرق والغرب . وبعد الحرب العالمية الأولى كان العالم الإسلامى كله تقريبًا خاضعًا لنفوذ الاستعمار الغربى(٢) .

---

(١) تراث الإسلام ١/ ٨٣ والاستشراق لإدوارد سعيد ص ٧٢ .

(٢) د. محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٢٩/ ٣٠ دار الفكر ببيروت ١٩٧٣م .

وقد استطاع الاستعمار أن يجند طائفة من المستشرقين لخدمة أغراضه وتحقيق أهدافه وتمكين سلطانه فى بلاد المسلمين . وهكذا نشأت هناك رابطة رسمية وثيقة بين الاستشراق والاستعمار، وانساق فى هذا التيار عدد من المستشرقين ارتضوا لأنفسهم أن يكون علمهم وسيلة لإذلال المسلمين وإضعاف شأن الإسلام وقيمه ـ وهذا عمل يشعر إزاءه المستشرقون المنصفون بالخجل والمرارة . وفى ذلك يقول المستشرق الألمانى المعاصر (شتيفان فيلد Stephan Wild) .

« . . . والأقبح من ذلك أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه فى سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين . وهذا واقع مؤلم لا بد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة»[١] .

ومن بين الأمثلة العديدة لارتباط الاستشراق بالاستعمار، نذكر المستشرق (كارل هينريش بيكر ـ Karl Heinrich Becker) (ت١٩٣٣م) مؤسس (مجلة الإسلام) الألمانية الذى قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية فى إفريقيا . فقد حصل الرايخ الألمانى فى عام ١٨٨٥م ـ ١٨٨٦م على مستعمرات فى إفريقيا تضم مناطق بعض سكانها من المسلمين، وظلت تلك المناطق تحت السيادة الألمانية حتى عام ١٩١٨م . وقد أدى ذلك إلى تأسيس معهد اللغات الشرقية فى برلين عام ١٨٨٧م، وهو معهد كانت مهمته تتلخص فى الحصول على معلومات عن البلدان الشرقية الحالية وبلدان الشرق الأقصى وعن شعوب هذه البلدان وثقافتها[٢] .

وفى هذا الصدد يقول المستشرق الألمانى (أولريش هارمان ـ Ulrich Harmann) :

«كانت الدراسات الألمانية حول العالم الإسلامى قبل عام ١٩١٩م أقل براءة وصفاء نية . فقد كان كارل هينريش بيكر ـ وهو من كبار مستشرقينا ـ منغمسًا فى النشاطات السياسية، حتى أنه أصبح فى عام ١٩١٤م شديد الحماس لمخطط استخدام الإسلام فى إفريقيا والهند كدرع سياسى فى وجه البريطانيين»[٣] .

---

(١) راجع فى ذلك كتابنا : الإسلام فى مرآة الفكر الغربى ص ٦١ وما بعدها .

(٢) بارت : ٣١/ ٣٢ .

(٣) انظر فى ذلك المقال الذى كتبه أوليريش هارمان عن الاستشراق الألمانى فى مجلة (الباحث) العدد ٢٥ كانون الثانى (يناير) ـ شباط (فبراير) ١٩٨٣م ص ١٤٥ .

أما (بارتولد ـ Barthold) (ت١٩٣٠م) مؤسس مجلة (عالم الإسلام) الروسية Mir Islama فقد تم تكليفه عن طريق الحكومة الروسية بالقيام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسية فى آسيا الوسطى.

أما عالم الإسلاميات الهولندى الشهير (سنوك هورجرونيه) (ت١٩٣٦م) فإنه فى سبيل استعداده للعمل فى خدمة الاستعمار توجه إلى مكة فى عام ١٨٨٥م بعد أن انتحل اسمًا إسلاميًا هو (عبدالغفار)، وأقام هناك ما يقرب من نصف عام. وقد ساعده على ذلك أنه يجيد العربية كأحد أبنائها. وقد لعب هذا المستشرق دوراً هامًا فى تشكيل السياسة الثقافية والاستعمارية فى المناطق الهولندية فى الهند الشرقية، وشغل مناصب قيادية فى السلطة الاستعمارية الهولندية فى إندونيسيا[١].

وفى فرنسا كان هناك عدد من المستشرقين يعملون مستشارين لوزارة المستعمرات الفرنسية فى شئون شمال إفريقيا. وعلى سبيل المثال كان المستشرق الكبير «دى ساسى» هو الذى ترجم البيان الموجه للجزائرين، وكان يستشار بانتظام فى جميع المسائل المتعلقة بالشرق من قبل وزارة الخارجية، وفى حالات معينة من قبل وزير الحربية أيضًا. وإلى عهد قريب كان «ماسينيون» مستشاراً للإدارة الاستعمارية الفرنسية فى الشئون الإسلامية[٢].

ويكشف المستشرق الفرنسى (هانوتو) (ت١٩٤٤م) ـ فى مقال له بعنوان: (قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية) ـ يكشف بوضوح عن مقترحاته لتوجيه سياسة فرنسا فى مستعمراتها الإفريقية الإسلامية، وما تهدف إليه هذه المقترحات من إضعاف المسلمين فى عقيدتهم حتى يسهل قيادهم[٣].

أما المصلحة البريطانية فى العالم الإسلامى، فقد كان الدافع إليها بطبيعة الحال هو ممارسة السيادة البريطانية فى الهند وغيرها من البلاد الإسلامية التى استولت عليها. وقد كان (اللورد كيرزن ـ Curzon) فى أوائل القرن الحالى من أشد المتحمسين فى إنجلترا لفكرة إنشاء مدرسة للدراسات الشرقية باعتبار أنها تعد «جزءًا ضروريًا من تأثيث الإمبراطورية»، وتساعد على الاحتفاظ بالموقع الذى نالته بريطانيا فى الشرق. وقد

---

(١) بارت ٣١ وانظر أيضًا: Bosworth, op, cit.

(٢) إدوارد سعيد ١٤٦، ٢٢١.

(٣) انظر: الفكر الإسلامى الحديث للدكتور محمد البهى ص ٣٠ وما بعدها.

تحولت المدرسة المذكورة فيما بعد إلى مدرسة جامعة لندن للدراسات الشرقية والإفريقية .

وقد كانت الحكومة البريطانية - من أجل تحقيق أهدافها الاستعمارية - ترسم سياستها فى مستعمراتها فى الشرق بعد التنسيق والتشاور مع فريق من المستشرقين الذين يقدمون لها الدراسات المطلوبة . يقول الدكتور إبراهيم اللبان رحمه الله :

« . . . والواقع أن رجال السياسة فى الغرب على صلة وثيقة بأساتذة هذه الكليات (كليات اللغات الشرقية فى أوربا) وإلى آرائهم يرجعون قبل أن يتخذوا القرارات الهامة فى الشئون السياسية الخاصة بالأمم العربية والإسلامية . وقد سمعت أحد كبار المستشرقين يتحدث أمامى فيذكر أن مستر (إيدن) كان قبل أن يضع قراراً سياسيًا فى شئون الشرق الأوسط يجمع المستشرقين المستعربين ، ويستمع إلى آرائهم ، ثم يقرر ما يقرر فى ضوء ما يسمعه منهم ، هذا إلى أن بعضهم كان يؤسس صلات صداقة بالبارزين من رجال الأمة العربية ، ويتخذ من هذه الصلات ستاراً يقوم من ورائه بأعمال التجسس فى أثناء الحرب»[1] .

والاستعمار فى حقيقة أمره هو امتداد للحروب الصليبية التى كانت فى ظاهرها حروبًا دينية ، وفى باطنها حروبًا استعمارية . وقد كانت العودة إلى احتلال بلاد العرب وبلاد الإسلام حلمًا ظل يراود الغربيين منذ هزيمة الصليبيين «فاتجهوا إلى دراسة هذه البلاد فى كل شئونها من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات ليتعرفوا على مواطن القوة فيها فيضعفوها وإلى مواطن الضعف فيغتنموها»[2] .

ولم تكن علاقة الاستشراق بالاستعمار - كما يظن - هى مجرد إضفاء طابع التبرير العقلى على المبدأ الاستعمارى ، بل كان الأمر - كما يقوله إدوارد سعيد أيضًا - أبعد من ذلك وأعمق ، فالتبرير الاستشراقى للسيادة الاستعمارية قد تم قبل حدوث السيطرة الاستعمارية على الشرق ، وليس بعد حدوثها ، فقد كان التراث الاستشراقى بمثابة دليل للاستعمار فى شعاب الشرق وأوديته من أجل فرض السيطرة على الشرق وإخضاع شعوبه وإذلالها .

---

(١) اللبان : المرجع السابق ص ١٨ ، إدوارد سعيد ص ٢٢٤ .
(٢) الاستشراق والمستشرقون للدكتور مصطفى السباعى ص ١٩ - مكتبة دار البيان بالكويت ١٩٦٨م .

«فالمعرفة بالأجناس المحكومة أو الشرقيين هى التى تجعل حكمهم سهلاً ومجديًا. فالمعرفة تمنح القوة، ومزيد من القوة يتطلب مزيداً من المعرفة» فهناك باستمرار حركة جدلية بين المعلومات والسيطرة المتنامية[1].

وهكذا اتجه الاستشراق المتعاون مع الاستعمار - بعد الاستيلاء العسكرى والسياسى على بلاد المسلمين - إلى إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية فى نفوس المسلمين وتشكيك المسلمين فى معتقداتهم وتراثهم، حتى يتم للاستعمار فى النهاية إخضاع المسلمين إخضاعًا تامًا للحضارة والثقافة الغربية.

* * *

---

(١) إدوارد سعيد: الاستشراق ص ٦٨، ٧٠.

اليهود والاستشراق

لقد اتضح لنا مما تقدم أنه قد كانت هناك أسباب معينة على مر العصور دفعت بالباحثين الغربيين النصارى إلى الاستشراق، وحملتهم على تحقيق أهداف معينة رسموها لأنفسهم، سواء أكانت هذه الأهداف أهدافًا علمية أم غير علمية. وهنا يمكن لسائل أن يسأل:

ما هي الأسباب التي دفعت اليهود إلى الإقبال على الاستشراق؟ وما الدور الذى قاموا به فى إطار الحركة الاستشراقية؟

والإجابة على هذا السؤال ليست سهلة، فمن الصعب الحصول على إجابة صريحة فى هذا الصدد، وذلك لأن المراجع التى تتحدث عن الاستشراق وتطوره قد أغفلت الحديث عن هذا الجانب. ونعتقد أن سبب إغفال الحديث عن هذا الموضوع يرجع إلى أن المستشرقين اليهود قد استطاعوا أن يكيفوا أنفسهم ليصبحوا عنصرًا أساسيًا فى إطار الحركة الاستشراقية الأوروبية، فقد دخلوا الميدان بوصفهم الأوروبى لا بوصفهم اليهودى. وقد استطاع (جولد تسيهر) فى عصره - وهو يهودى مجرى - أن يصبح زعيم علماء الإسلاميات فى أوروبا بلا منازع، ولا تزال كتبه حتى اليوم تحظى بالتقدير العظيم والاحترام الفائق من كل فئات المستشرقين.

وهكذا لم يرد اليهود أن يعملوا داخل الحركة الاستشراقية بوصفهم مستشرقين يهود حتى لا يعزلوا أنفسهم، وبالتالى يقل تأثيرهم. ولهذا عملوا بوصفهم مستشرقين أوروبيين، وبذلك كسبوا مرتين: كسبوا أولاً فرض أنفسهم على الحركة الاستشراقية كلها، وكسبوا ثانيًا تحقيق أهدافهم فى النيل من الإسلام، وهى أهداف تلتقى مع أهداف غالبية المستشرقين المسيحيين.

ويشير الأستاذ الدكتور محمد البهى ـ رحمه الله ـ فى كتابه (الفكر الإسلامى الحديث) إلى ملاحظة لبعض الباحثين حول تفسير أسباب إقبال اليهود على الاستشراق. وتتلخص هذه الملاحظة فى أنهم أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية وسياسية. أما الأسباب الدينية، فإنها تتمثل فى محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك فى قيمه بإثبات فضل اليهودية عليه، وذلك بادعاء أن اليهودية فى نظرهم هى مصدر الإسلام الأول. أما الأسباب السياسية، فإنها تتصل بخدمة الصهيونية فكرة أولاً ثم دولة ثانيًا.

ويرى الدكتور البهى أن وجهة النظر هذه على الرغم من أنها لا تعتمد على مصدر مكتوب يؤيدها، فإن الظروف العامة والظواهر المترادفة فى كتابات هؤلاء المستشرقين تعزز وجهة النظر هذه، وتضفى عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمى[1].

ونحن فى الواقع لسنا فى حاجة إلى دليل لإثبات كراهية كثير من اليهود للإسلام، وذلك لأن هذه الكراهية قد ظهرت واضحة كالشمس منذ ظهور الإسلام. وقد أكد القرآن ذلك فى قوله تعالى:

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا...﴾ [المائدة: ٨٢].

وقد ظل بعض اليهود طوال تاريخهم يتحينون كل فرصة متاحة ليكيدوا للإسلام والمسلمين. وقد وجدوا فى مجال الاستشراق بابًا ينفثون منه سمومهم ضد الإسلام والمسلمين. فدخلوا هذا المجال مستخفين تحت رداء العلم، كما وجدوا فى الصهيونية بابًا آخر يفرضون منه سيطرتهم على العرب والمسلمين.

***

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث للدكتور البهى ص ٥٣٤.

مستقبل الاستشراق

وفى ختام هذا الفصل تبرز أمامنا بعض الأسئلة الملحة حول مستقبل الاستشراق: هل لا يزال الاستشراق يعيش الآن عصر ازدهاره، أم أن نجمه بدأ يأفل وتأثيره بدأ يقل ونشاطه بدأ يتضاءل.. وخاصة بعد أن انحسر المد الاستعمارى عن العالم الإسلامى؟

أين يقف الاستشراق الآن فى العصر الحاضر؟

ما موقف الحكومات الأوروبية اليوم من دعم النشاط الاستشراقى؟

إن طرح هذه الأسئلة له ما يبرره. فهناك بالفعل وجهات نظر تتحدث عن نهاية الاستشراق.

وهناك من ناحية أخرى انتقادات واتهامات كثيرة موجهة إلى الاستشراق من جهات عديدة، وإن اختلفت منطلقات هذه الانتقادات، فمثلاً يقول أحد الساسة الألمان:

«لقد آن الأوان كى يبتعد المستشرقون باهتماماتهم عن اللهجات العربية، ويعدوا أنفسهم لتقبل الدور الجديد كطاقة فاعلة فى خدمة العلوم الاجتماعية، وكاحتياطيين للقيام بمهمة الترجمة والشرح فى ميادين العمل المختلفة».

والمستشرقون وإن كانوا يرفضون أن ينخفض دورهم إلى هذا المستوى، فإنهم يعترفون فى الوقت نفسه بالقصور فى جوانب مختلفة هى أيضًا مثار انتقادات عنيفة. ويجمل (أوليريش هارمان) هذه الانتقادات فيقول:

«لقد اتهمنا بأننا متخلفون وأقل تطوراً وتقدمًا فى أساليبنا، لا ننفعل حيال التحديات الجديدة، واتهمنا كذلك بأننا وصفيون نقليون ولسنا تحليليين، وإذا كنا نقدر أنفسنا حق التقدير، فما علينا سوى الاعتراف بأن هذا النقد صحيح إلى حد بعيد»[1].

---

(١) مجلة الباحث ص ١٤٤.

ولكن أهم ما يؤخذ على الاستشراق من وجهة النظر الإسلامية هو تمسك المستشرقين بالأساليب الاستشراقية البالية فى فهم الإسلام وتناوله والروح العدائية التى تحملها دراساتهم حول الإسلام، تلك الروح التى لا تزال مسيطرة على غالبية علماء الإسلاميات من المستشرقين. وستتعرف على بعض النماذج من دراساتهم الإسلامية فى الفصل الثانى من هذا الكتاب. وهذه الروح العدائية هى العقبة الكأداء التى تجعل العربى المسلم يقف من الاستشراق موقف الحذر المتشكك، بل موقف الرافض للاستشراق. فهل لدى المستشرقين استعداد لتطوير أساليبهم البالية فى دراسة الإسلام والالتزام بالحيدة والموضوعية والنزاهة العلمية؟

إن هناك بعض المؤشرات نحو الاقتراب من الاعتدال والاتزان فى معالجة بعض المسائل الإسلامية لدى بعض المستشرقين المعاصرين من أمثال: مكسيم رودنسون، وچاك بيرك، وأنا مارى شميل وچون إسپوزيتو، على سبيل المثال لا الحصر، وهو اتجاه نقدره ونرجو أن يصبح فى النهاية تيارًا عامًا، وعندئذ يمكن أن يسهم فى دعم روح التفاهم والقضاء على الروح العدائية التى استمرت قرونًا عديدة.

أما الحديث عن قرب نهاية الاستشراق فلست أظن أن مثل هذه النهاية وشيكة الحدوث. فالمسألة ليست بهذه البساطة، ولا يمكن القول بأن الحركة الاستشراقية بدأت تنحسر وأنها تعيش آخر أيامها. فالحركة لا تزال متماسكة وقوية ومنظمة، ولا تزال جمعيات المستشرقين ومؤتمراتهم المختلفة تمارس نشاطها، ومعاهد الاستشراق منتشرة اليوم فى أغلب الجامعات الأوروبية والأمريكية. هذا فضلاً عن تغلغل المصالح الغربية فى بلدان العالم الإسلامى، وخاصة بلاد الشرق الأوسط، الأمر الذى يجعل هذه المصالح تساند الحركة الاستشراقية التى تقدم بدورها للجهات المعنية فى الغرب الدراسات المختلفة عن بلدان العالم الإسلامى. وبالإضافة إلى ذلك كله فإن مجالات التخصص لدى المستشرقين قد تعددت، وهذا يعنى إثراء الدراسات الاستشراقية لا القضاء عليها.

ولكن الشىء المهدد بالزوال - كما يقول رودنسون - هو سيطرة الدراسات الفيلولوچية (فقه اللغة). فقد كان هناك اتجاه سائد فى الحركة الاستشراقية لفترة تزيد على قرن من الزمان يركز على التدريب الفيلولوچى بوصفه كافيًا لحل جميع المشاكل الناشئة ضمن ميدان لغوى محدد.

وهناك دلائل تشير إلى التخلى عن هذا الاعتقاد، وذلك نظراً للزيادة الكبيرة فى المعلومات المتوفرة، بالإضافة إلى تعدد أدوات البحث وتقدم طرق الدراسة، الأمر الذى أصبح يمكن الباحث من تجاوز المرحلة الفيلولوچية أو على الأقل يخصص لها وقتًا أقل من ذى قبل. فقد كشف التقدم فى العلوم الاجتماعية «عن مدى تعقيد المشاكل التى لا يمكن حلها بالالتجاء إلى الفهم العادى السليم وحده، وبالمعرفة العميقة باللغة، بل ربما أيضًا لا يمكن حلها عن طريق استلهام مبادئ فلسفية عامة. لذا فقد أصبحت الدراسات الشرقية ـ وبصورة خاصة الدراسات الإسلامية ـ أكثر صعوبة، وأقل خصوصية، وأصبح الربط بينها وبين العلوم الأخرى ـ الذى كان ترفًا فيما مضى ـ حاجة لا مفر منها الآن»[1].

ويعنى رودنسون بالعلوم الأخرى هنا، علوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والأنثربولوچيا والسكان... إلخ.

ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام أنه قد عقدت ندوة عن علم الاجتماع الإسلامى فى بروكسل عام ١٩٦١م[2]. وهذا أمر يبين لنا بداية انفتاح مجالات جديدة أمام الدراسات الاستشراقية كانت مهملة تمامًا فى السابق.

وهكذا يمكن القول بأن انحسار المد الاستعمارى العسكرى عن العالم الإسلامى لا يعنى بالتالى القضاء على الحركة الاستشراقية. فالاستعمار العسكرى كان مرحلة ارتبطت بها من غير شك جهود طائفة من المستشرقين.

ولكن هناك طائفة أخرى لم ترتبط بالاستعمار، وليس يعنى ذلك بالضرورة أنها كانت منصفة للإسلام والمسلمين.

وقد عاش الاستشراق عصر ازدهاره فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين، وشهدت تلك الفترة جيل العمالقة من المستشرقين، وقد ظهرت الآن أجيال جديدة تسير على الدرب نفسه وتترسم خطى السابقين.

وتهتم الحكومات الأوروبية بدعم الحركة الاستشراقية فى أوروبا، ولا تبخل عليها بالمال اللازم لاستمرار نشاطها.

---

(١) راجع: تراث الإسلام ١/ ٩٩ وما بعدها.

(٢) Bosworth,op.cit.

يقول (رودى بارت):

«الاستشراق فى ألمانيا حاليًا وفى العالم الأوروبى الحديث كله مادة علمية معترف بها من الجميع . . نعترف شاكرين بأن المجتمع ممثلاً فى الحكومات والمجالس النيابية يضع تحت تصرفنا الإمكانات اللازمة لإجراء بحوث الاستشراق وللحفاظ على نشاطنا التعليمى فى هذا المضمار . . وما تطلبه الدولة والمجتمع منا ـ معشر المستشرقين ـ هو بصفة عامة العمل كمدرسين وباحثين متخصصين . أما التصرف فى أمر الموضوعات الخاصة التى ينصب عليها الدرس والبحث فمتروك لنا»[1] .

ولكن هناك مستشرقًا آخر يعترف بأن مقدمى الدعم المالى يمارسون ضغوطًا على الاستشراق ، الأمر الذى يتناقض مع ما يقوله (بارت) من أن الحكومات التى تقدم الدعم لا تتدخل فى أمر البحوث الاستشراقية .

يقول (أوليريش هارمان):

« . . . وطبعًا هناك أيضًا الضغط الملح من قبل أولئك الذين يقدمون الأموال لدعم النتائج التى تؤدى إلى احتواء العالم العربى الإسلامى والتشبث به ، باعتباره منطقة اضطراب ، حيث تكمن اهتمامات الغرب ومصالحه»[2] .

فهناك إذن ارتباط وثيق بين مصالح الغرب واهتماماته ودعم الحركة الاستشراقية . وهذا أمر يجعل استمرار الاستشراق متوقفًا على استمرار الدعم المالى الذى تقدمه الحكومات والهيئات المختلفة ، واستمرار الدعم المالى يتوقف على مدى تشبث الغرب بمصالحه فى العالم العربى والإسلامى ، والتشبث بهذه المصالح حقيقة واقعة تؤكدها جميع الشواهد . وليس هناك أى بارقة تلوح فى الأفق توحى بأن الغرب على استعداد للتخلى عن هذه المصالح . وما دام الأمر كذلك ، فإن الحاجة إلى الاستشراق فى الغرب ستظل قائمة ، بل ستزداد إلحاحًا .

***

---

(١) بارت ١٣ ، ١٤ .

(٢) مجلة الباحث ١٤٤ .

الفصل الثانى

المستشرقون وموقفهم من الإسلام

تمهيد

بعد أن تعرفنا فى الفصل السابق على الخطوط العريضة لنشأة الاستشراق وتطوره، نأتى الآن فى هذا الفصل لنتعرف على الآراء والمواقف الاستشراقية المتصلة بالدراسات الإسلامية على وجه الخصوص، ومدى اقترابها أو ابتعادها من الروح العلمية الموضوعية.

وقبل الدخول مباشرة إلى عرض هذه الآراء والمواقف نرى أنه من المناسب أولاً أن نمهد لذلك باستعراض سريع لبعض النقاط العامة التى تتصل بأعمال المستشرقين بصفة عامة.

وفى هذا الصدد لابد لنا من الحديث عن المنهج الذى يسيرون عليه فى دراساتهم لتحقيق الأهداف التى وضعوها لأنفسهم. ومن خلال ذلك كله سيتضح لنا أن الحركة الاستشراقية تضم تحت جناحيها فئات من المستشرقين تتميز كلٌّ منها عن الأخرى حسب الأهداف التى وضعتها كل فئة لنفسها.

وبعد الانتهاء من عرض هذه النقاط العامة يصبح من السهل علينا أن ننتقل إلى استعراض لبعض الآراء الأساسية للمستشرقين فيما يتصل بالإسلام ودراسته. ثم نعقب على ذلك بما نستخلصه من المواقف الاستشراقية إزاء الإسلام.

ونحن بادئ ذى بدء لا ندخل على المستشرقين هنا دخول المُنْكر المعاند الباحث عن المثالب، وإنما ندخل عليهم دخول الباحث الذى يتوخى الوصول إلى الحقيقة، وهذا سيجعلنا نتعرف على ما للمستشرقين من إيجابيات تذكر لهم، وما لهم من سلبيات تسجل عليهم، وهذا منهج حثنا الإسلام على اتباعه إحقاقًا للحق ووضعًا للأمور فى نصابها:

﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾. [المائدة: ٨].

فكلٌّ من «الثناء والتحامل المطلق يتنافى مع الحقيقة التاريخية التى سجلها هؤلاء المستشرقون فيما قاموا به من أعمال، وما تطرقوا إليه من أبحاث»[1].

وهكذا لن نغمطهم حقهم فى تقدير ما لهم من أعمال علمية مفيدة. ولا ضير على المرء إذا اعترف بما لخصمه من مزايا وإيجابيات، إذ إن ذلك ربما يكون حافزاً لنا على النهوض والاستعداد من جديد، وقبول التحدى الذى تفرضه علينا ـ نحن المسلمين ـ ظروف العصر.

والإيجابيات التى سنذكر هنا طرفًا منها، بعضها يخص المستشرقين أنفسهم ويتصل بأسلوب عملهم ومدى ترابطهم، والقصد من ذكرها هو مجرد الاعتبار بها فقط؛ وبعضها الآخر أمور تتصل بإنتاجهم العلمى الذى يعود بعضه بالفائدة على الدارسين العرب وإن كان المستشرقون قد قصدوا به فى المقام الأول خدمة أنفسهم، إلا أنهم مع ذلك لم يحجبوه عن غيرهم.

وفى الوقت نفسه لن نغض الطرف عن سلبياتهم الكثيرة وما اقترفوه فى حق الإسلام والمسلمين من تضليل وبهتان.

* * *

(١) د. مصطفى السباعى: «الاستشراق والمستشرقون»، ص١٥.

أعمال المستشرقين

تتمثل جهود المستشرقين على مدى تاريخهم الطويل فى أعمال مختلفة تشكل فى مجموعها كلاً واحداً . ويمكن تلخيص هذه الأعمال فى عدة أمور هى :

١ـ التدريس الجامعى .

٢ـ جمع المخطوطات وفهرستها .

٣ـ التحقيق والنشر .

٤ـ الترجمة من العربية إلى اللغات الأوروبية .

٥ـ التأليف فى شتى مجالات الدراسات العربية والإسلامية .

وفيما يلى نلقى نظرة سريعة على هذه الأعمال .

١ ـ التدريس الجامعى

يكاد يكون هناك فى كل جامعة أوروبية أو أمريكية معهد خاص للدراسات الإسلامية والعربية ، بل يوجد فى بعض الجامعات أكثر من معهد للاستشراق مثل جامعة ميونيخ ، حيث يوجد بها معهد للغات السامية والدراسات الإسلامية ومعهد لتاريخ وحضارة الشرق الأدنى . ويرأس كل معهد أستاذ ، ويساعده بعض المحاضرين والمساعدين . وتقوم هذه المعاهد بمهمة التدريس الجامعى وتعليم العربية وتخريج الدارسين فى أقسام الماجستير والدكتوراه ممن سيواصلون أعمالهم فى المجال الاستشراقى الأكاديمى أو غيره من مجالات أخرى فى السلك الدبلوماسى أو الالتحاق بأعمال فى الأقسام الشرقية بدور الكتب ، أو فى مراكز البحوث المهتمة بالشرق ، أو غير ذلك من أعمال فى جهات لها صلة بالشرق .

ومن هنا تأتى أهمية ما يحمله المستشرقون من أيديولوچية بالنسبة لما يخلفونه من آثار فى الدارسين على أيديهم وما ينطبع منهم على غيرهم[1].

ولكل معهد مكتبة عامرة بالكتب والمراجع العربية الإسلامية التى تخدم الدراسات والبحوث العلمية للدارسين.

وتفتح هذه المعاهد أبوابها للدارسين من كل مكان، ومنها يتخرج أيضًا بين الحين والحين أعداد لا بأس بها من العرب المسلمين الذين يعودون إلى بلادهم لتولى مهمة التدريس فى جامعات بلادهم.

ويتفانى المستشرقون فى أعمالهم ويخدمون أهدافهم بإخلاص تام وتفان إلى أقصى حد وبكل الوسائل. ولديهم صبر عجيب ونادر فى البحث والدرس وإحاطة تامة بالعديد من اللغات القديمة والحديثة. وقد أشار الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى: «الإعجاب بصبرهم ونشاطهم وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم»[2].

ولهم معرفة جيدة بأهم ما ينشر عن الدراسات العربية والإسلامية فى بلادنا، ومكتباتهم الخاصة والعامة عامرة بشتى المراجع العربية والإسلامية قديمها وحديثها. وهناك حقيقة يعرفها كل من خالط المستشرقين وهى أن المستشرق المتمكن لا تأخذه العزة بالإثم إذا نبهته إلى خطأ وقع فيه نتيجة لعدم فهمه لروح اللغة العربية.

٢ـ جمع المخطوطات العربية

اهتم المستشرقون منذ زمن طويل بجمع المخطوطات العربية من كل مكان فى بلاد الشرق الإسلامى. وكان هذا العمل مبنيًا على وعى تام بقيمة هذه المخطوطات التى تحمل تراثًا غنيًا فى شتى مجالات العلوم.

وكان بعض الحكام فى أوروپا يفرضون على كل سفينة تجارية تتعامل مع الشرق أن تحضر معها بعض المخطوطات. وقد ساعد الفيض الهائل من المخطوطات المجلوبة من الشرق على تسهيل مهمة الدراسات العربية فى أوروپا وتنشيطها. ومنذ الحملة

---

(١) طيباوى: (الفكر الإسلامى الحديث للدكتور البهى، ص ٥٩٠).
(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ص ٢٧.

النابليونية على مصر عام١٧٩٨م تزايد نفوذ أوروبا فى الشرق، وساعد ذلك على جلب الكثير من المخطوطات، وكانت الجهات المعنية فى أوروبا ترسل مبعوثيها لشراء المخطوطات من الشرق. فعلى سبيل المثال أرسل «فريدريش فيلهلم الرابع» ملك بروسيا «ريتشارد ليبسيوس» إلى مصر عام ١٨٤٢م، و(هينريش بترمان» عام ١٨٥٢م إلى الشرق لشراء مخطوطات شرقية. وقد تم جمع المخطوطات من الشرق بطرق مشروعة وغير مشروعة، وقد لقيت هذه المخطوطات فى أوروبا اهتمامًا عظيمًا، وتم العمل على حفظها وصيانتها من التلف والعناية بها عناية فائقة وفهرستها فهرسة علمية نافعة تصف المخطوط وصفًا دقيقًا، وتشير إلى ما يتضمنه من موضوعات وتذكر اسم المؤلف وتاريخ ميلاده ووفاته وتاريخ تأليف الكتاب أو نسخه. . . إلخ. وبذلك وضعت تحت تصرف الباحثين الراغبين فى الاطلاع عليها فى مقر وجودها أو طلب تصويرها بلا روتين أو إجراءات معقدة.

وقد قام «ألوارد - Ahlwardt» بوضع فهرس للمخطوطات العربية فى مكتبة برلين فى عشرة مجلدات، بلغ فيه الغاية فنًا ودقة وشمولاً. وقد صدر هذا الفهرس فى نهاية القرن التاسع عشر، واشتمل على فهرس لنحو عشرة آلاف مخطوط. وقد قام المستشرقون فى الجامعات والمكتبات الأوروبية كافة بفهرسة المخطوطات العربية فهرسة دقيقة، وتقدر المخطوطات العربية الإسلامية فى مكتبات أوروبا بعشرات الآلاف، بل قد يصل عددها إلى مئات الآلاف.

وهناك دراسات للمستشرقين عن هذه المخطوطات فى مجالات عديدة. وعلى سبيل المثال قامت باحثة من المستشرقين بإعداد بحث عن نوادر مخطوطات القرآن الكريم فى القرن السادس عشر، قال عنه الشيخ أمين الخولى بعد أن سمعه أثناء حضوره لمؤتمر المستشرقين الدولى الخامس والعشرين:

«لقد قدمت السيدة كراتشكوفسكي بحثًا عن نوادر مخطوطات القرآن فى القرن السادس عشر الميلادى. وإنى أشك فى أن الكثيرين من أئمة المسلمين يعرفون شيئًا عن هذه المخطوطات. وأظن أن هذه مسألة لا يمكن التساهل فى تقديرها»[1].

---

(١) راجع العقيقى ٣/ ٣٥٢ وما بعدها. وكذلك ٣/ ٥٩٨.
راجع أيضًا: Fueck op.cit. 189 -191.

وهنا كلمة حق يجب أن تقال، وهى أن انتقال هذا العدد الهائل من المخطوطات إلى أوروپا بوسائل شرعية أو غير شرعية قد هيأ لها أحدث وسائل الحفظ والعناية الفائقة والفهرسة الدقيقة. وعندما أقول هذا أشعر بالأسى والحسرة لحال المخطوطات النادرة فى كثير من بلادنا العربية والإسلامية وما آل إليه حال الكثير منها من التلف والتآكل وصعوبة أو استحالة الاستفادة منها.

٣ـ التحقيق والنشر

ولم يقتصر عمل المستشرقين على جمع المخطوطات وفهرستها، بل تجاوز ذلك إلى التحقيق والنشر. فقد قاموا بتحقيق الكثير من كتب التراث، وقابلوا بين النسخ المختلفة ولاحظوا الفروق وأثبتوها، ورجحوا منها ما حسبوه أصحها وأعدلها، وأضافوا إلى ذلك فهارس أبجدية للموضوعات والأعلام أثبتوها فى أواخر الكتب التى نشروها، وقاموا فى بعض الأحيان بشرح بعض الكتب شرحًا مفيدًا[١].

وهكذا استطاعوا أن ينشروا عددًا كبيرًا جدًا من المؤلفات العربية، كانت عونًا كبيرًا للباحثين الأوروپيين من المستشرقين وغيرهم من بلاد الشرق. وقد عرفنا الكثير من كتب التراث محققًا ومطبوعًا على أيديهم. ومن بين هذه الكتب نذكر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ نشرهم لسيرة ابن هشام، والإتقان للسيوطى، والمغازى للواقدى، والكشاف للزمخشرى، وتاريخ الطبرى، وكتاب سيبويه، والاشتقاق لابن دريد، والأنساب للسمعانى، ومعجم الأدباء لياقوت، وتجارب الأمم لابن مسكويه، وفتوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبدالحكم، واللمع لأبى نصر السراج، والبديع لابن المعتز، وحى بن يقظان لابن طفيل، والمختصر فى حساب الجبر والمقابلة للخوارزمى، والملل والنحل للشهرستانى، وعمدة عقيدة أهل السنة والجماعة للحافظ النسفى، وفتوح الشام للأزدى البصرى، وفتوح الشام للواقدى، والكامل للمبرد، والجمهرة لابن دريد، وأخبار النحويين البصريين للسيرافى، وكتاب المناظر لابن الهيثم، والإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى، والأحكام السلطانية للماوردى، وفضائح الباطنية للغزالى، وتاريخ اليعقوبى، والفهرست لابن النديم، وكشف الظنون لحاجى خليفة، والتعريفات للجرجانى، وطبقات الحفاظ للذهبى، ووفيات الأعيان

---

(١) اللبان ص ٢٠.

لابن خلكان، وتهذيب الأسماء للنووى، وصحيح البخارى، والمقتضب لابن جنى، ومقالات الإسلاميين للأشعرى، والوافى بالوفيات للصفدى، والتيسير فى القراءات السبع لأبى عمرو عثمان الدانى، والرد الجميل على مدعى ألوهية المسيح بصريح الإنجيل للغزالى، وعيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة، والأغانى للأصفهانى، والأوائل للسيوطى، والطبقات لابن سعد، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والفقه الأكبر لأبى حنيفة، وعدد هائل من دواوين الشعر العربى فى عصوره المختلفة.

٤ ـ الترجمة

ولم يقتصر الأمر على نشر النصوص العربية، بل قاموا أيضًا بترجمة مئات الكتب العربية والإسلامية إلى اللغات الأوروبية كافة، فقد نقلوا إلى لغاتهم الكثير من دواوين الشعر والمعلقات وتاريخ أبى الفداء وتاريخ الطبرى، ومروج الذهب للمسعودى، وتاريخ المماليك للمقريزى، وتاريخ الخلفاء للسيوطى، والإحياء والمنقذ للغزالى، وغير ذلك من مئات الكتب فى اللغة والأدب والتاريخ والعلوم الإسلامية المتعددة، هذا فضلاً عما ترجم فى القرون الوسطى من مؤلفات العرب والمسلمين فى الفلسفة والطب والفلك وغير ذلك من علوم.

وقد سبق أن عرفنا فى الفصل السابق أن القرآن قد تمت ترجمته لأول مرة فى القرن الثانى عشر. وقد قام المستشرقون منذ ذلك الوقت وحتى الآن بإعداد العديد من ترجمات القرآن إلى اللغات الأوروبية كافة، وقد مهدوا لترجماتهم بمقدمات وضعوا فيها تصوراتهم عن الإسلام، وبذلك أعطوا للقارئ من بادئ الأمر تصورهم الذى لا يتفق فى معظم الأحيان مع الحقائق الإسلامية، بل قد يصطدم مع هذه الحقائق اصطدامًا جوهريًا.

وفيما يلى بيان تقريبى بعدد الترجمات المعروفة التى تمت فى عدد من اللغات الأوروبية ولا يدخل فى هذا العدد بطبيعة الحال الترجمات الجزئية أو الطبعات المتكررة[١].

---

(١) نحن مدينون فى هذا الجزء من الإحصاء بالشكر للأخ الفاضل د. حسن المعايرجى، وهو مهتم بموضوع ترجمات القرآن، وقد أحصى حتى الآن ترجمات للقرآن الكريم فى مائة وإحدى وعشرين لغة فى أنحاء العالم كافة. وقد بلغت الترجمات الكاملة للقرآن الكريم فى اللغات الأوروبية مع طبعاتها المتعددة ٦٧١ ترجمة وطبعة، وبلغت الترجمات الجزئية والمختارات ٢٤٥ ترجمة، وذلك حتى عام ١٩٨٠م فى ٢٢ لغة أوروبية (راجع: البيليوجرافيا العالمية لترجمات معانى القرآن الكريم. إستانبول ١٩٨٦م).

فى اللغة الألمانية	١٤	ترجمة
فى اللغة الإنجليزية	١٧	ترجمة
فى اللغة الإيطالية	١٠	ترجمات
فى اللغة الروسية	١٠	ترجمات
فى اللغة الفرنسية	١١	ترجمة
فى اللغة الإسپانية	٩	ترجمات
فى اللغة اللاتينية	٧	ترجمات
فى اللغة الهولندية	٦	ترجمات[١]

٥ ـ التأليف

تعددت مجالات التأليف فى الدراسات العربية والإسلامية لدى المستشرقين، وبلغ عدد ما ألفوه فى الشرق فى قرن ونصف (منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين) ستين ألف كتاب[٢].

لقد ألفوا فى التاريخ العربى الإسلامى ، وفى علم الكلام، وفى الشريعة، وفى الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامى، وفى تاريخ أدب اللغة العربية، وفى الدراسات المتعلقة بالقرآن والسنة النبوية، وفى النحو العربى وفقه اللغة العربية. ولم يتركوا مجالاً من مجالات العلوم العربية والإسلامية إلا وألفوا فيه.

ولهم بعض مؤلفات قيمة ذات فائدة علمية للباحثين، ولهم مؤلفات أخرى تزخر بالطعن فى الإسلام، وتمتلئ بالأكاذيب التى ليس لها فى سوق العلم نصيب. وسنتحدث بشىء من التفصيل عن بعض الأمثلة من هذه الكتابات عند عرضنا لآراء المستشرقين حول الإسلام فى هذا الفصل.

وسنكتفى هنا بالإشارة إلى بعض المؤلفات ذات القيمة العلمية كنماذج للمؤلفات المفيدة.

---

(١) غنى عن البيان أن نشير إلى أنه قد صدرت ترجمات أخرى عديدة منذ صدور هذا الكتاب فى طبعته الأولى قبل ربع قرن.

(٢) إدوارد سعيد ص ٢١٦.

(أ) تاريخ الأدب العربى

من تأليف المستشرق الألمانى كارل بروكلمان (توفى ١٩٥٦م) وهو كتاب أساسى فى الدراسات العربية والإسلامية لا يستغنى عنه باحث فى الدراسات العربية والإسلامية، وقد قام بروكلمان بهذا العمل الضخم بمفرده، ولا يقتصر هذا الكتاب على الأدب العربى وفقه اللغة، بل يشمل كل ما كتب باللغة العربية من المدونات الإسلامية. فهو سجل للمصنفات العربية المخطوط منها والمطبوع.

ويكتمل بمعلومات عن حياة المؤلفين، وقد صدر أولاً فى مجلدين فى عامى ١٨٩٨ ، ١٩٠٢م، ثم اتبعه المؤلف بثلاثة مجلدات تكميلية كبيرة تضم فى مجموعها حوالى ٢٦٠٠ صفحة فى الفترة من عام ١٩٣٧ إلى عام ١٩٤٢م، ثم أعاد نشر المجلدين الأساسيين فى عامى ١٩٤٣ ، ١٩٤٩م فى طبعة أخرى معدلة ليتناسب تعديلهما مع المجلدات الثلاثة التكميلية.

وقد حصلت الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية - إدراكًا منها لأهمية هذا الكتاب لكل باحث عربى - حصلت عام ١٩٤٨م على موافقة بروكلمان وإذنه بترجمة الكتاب إلى العربية. وقد بعث بروكلمان إلى الإدارة المذكورة بجزء كتبه بخطه وباللغة العربية يحتوى على تصحيحات وزيادات لغرض إلحاقها بالترجمة. وقد قام الدكتور عبدالحليم النجار - رحمه الله - بترجمة بعض أجزاء من هذا الكتاب إلى العربية بتكليف من الجامعة العربية، وصدر الجزء الأول منها عام ١٩٥٩م. ووصل ما صدر من أجزاء حتى الآن ستة أجزاء. وكانت الترجمة قد توقفت بعد وفاة الدكتور النجار وصدور الأجزاء الثلاثة الأولى.

وقد تم تقسيم الكتاب كله إلى ثمانية عشر جزءاً، وقامت المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة بتوزيع باقى الأجزاء على مجموعة من الباحثين لترجمتها حتى يتسنى نشر الكتاب كله دفعة واحدة. وقد طُلب منى القيام بترجمة أحد هذه الأجزاء، وكانت المنظمة العربية تستحث الباحثين بين الحين والحين برسائل رسمية لإنجاز هذا العمل. ولكن رياح التيارات السياسية التى اجتاحت المنطقة العربية عام ١٩٧٩م أعاقت إنجاز هذا العمل الثقافى البحت. وقد ظل الموضوع طى النسيان سنوات عديدة حتى تهيأت الظروف المواتية للانتهاء من الترجمة. وقامت الهيئة المصرية العامة للكتاب والمنظمة

العربية بنشر الترجمة فى القاهرة (١٩٩٣ ـ ١٩٩٥م) فى تسعة مجلدات بإشراف الصديق الدكتور محمود فهمى حجازى[١].

ويكفى هنا لتعريف القارئ بقيمة هذا الكتاب أن نورد السطور التالية من مقدمة الدكتور عبدالحليم النجار للكتاب . . . والتى وردت فى الجزء الأول من الترجمة العربية . يقول رحمه الله فى بداية المقدمة :

«كان تعريب تاريخ الأدب العربى (لكارل بروكلمان) أملاً يراود كل قارئ بالعربية حينما يبحث فى علوم العرب وآدابهم ، أو يحاول سبر جهود العلم العربى ومتابعة خطواته فى تأسيس ثقافة العالم الجديد وتنمية حضارته ، أو يريد حصر ما تشتت وإحصاء ما تفرق من تراث الفكر العربى فى مكتبات العالم وخزائن الكتب ، ليتخذ من ذلك آيات بينات للفخر والاعتزاز ، أو عدة ومددًا للبعث والإحياء ، أو يتطلع أخيرًا إلى معرفة ما ترجم إلى لغات العالم من ذلك التراث الخالد ، وما أثير حوله من بحوث ، وصنف من دراسات قدمت خطى العلم والأدب ودفعتهما إلى الأمام فى الشرق والغرب» .

وقد كان بروكلمان يدرك أن عمله فى حاجة مستمرة إلى الإكمال ـ بناء على ما يكتشف من مخطوطات ، ولذلك كان دائب العناية بإكماله على مدى نصف قرن . ويقوم الآن الباحث التركى المسلم فؤاد سيزكين ـ تلميذ المستشرق الألمانى هيلموت ريتر ـ بعد اكتشاف آلاف المخطوطات بإكمال عمل بروكلمان ، وذلك فى كتابه (تاريخ التراث العربى) بالألمانية الذى ترجم بعضه إلى العربية[٢] ، ومنح عليه جائزة الملك فيصل للدراسات الإسلامية منذ بضع سنوات .

(ب) دائرة المعارف الإسلامية

على الرغم مما لنا ـ نحن المسلمين ـ على هذه الدائرة من مآخذ كثيرة فإنها تعد ثمرة من ثمار التعاون العلمى الدولى بين المستشرقين . وقد تم إصدارها فى طبعتها الأولى

(١) لا تزال هناك بعض أجزاء من الكتاب ـ وخاصة ما يتعلق منها بالعصر الحديث ـ لم تجد طريقها إلى النشر حتى الآن .

(٢) صدر منه بالعربية حتى الآن عشرة أجزاء قامت بنشرها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .

بالإنجليزية والفرنسية والألمانية فى الفترة من عام ١٩١٣ إلى عام ١٩٣٨م. وقد تولت نقلها إلى العربية لجنة دائرة المعارف الإسلامية من خريجى الجامعة المصرية منذ عام ١٩٣٣م، ولكنها لم تصل فى الترجمة إلا إلى حرف العين. . . وقد عمد المترجمون إلى نشر تعليقات هامة فى أعقاب الكثير من المقالات لتصحيح الأخطاء التى وقع فيها المستشرقون، وقام بكتابة هذه التعليقات مجموعة من العلماء المعروفين.

وقد تجاوز المستشرقون فيما بعد هذه الدائرة المتداولة وقرروا فى مؤتمرهم الحادى والعشرين فى باريس عام ١٩٤٨م إصدار دائرة معارف إسلامية جديدة تعاد فيها كتابة المقالات بناء على ما صدر من بحوث حديثة وما نشر واكتشف من مخطوطات. وبذلك يستدركون ما فاتهم، وتأتى الموسوعة الجديدة مشتملة على النتائج الأخيرة للبحث العلمى فى تاريخ العالم الإسلامى وجغرافيته. وشرع المستشرقون فى عملهم بجد ونشاط، وبدأ ظهور الموسوعة الجديدة منذ عام ١٩٥٤م. وقد صدر منها حتى الآن ستة مجلدات كبيرة، ولا يزال العمل جاريًا فى المجلدات المتبقية. والطبعة الجديدة تتميز - بالمقارنة مع الطبعة القديمة - باعتدال آراء المستشرقين نسبيًا فى تناولهم للقضايا الإسلامية الخلافية، وكذلك بمشاركة كثير من العلماء المسلمين فى تحريرها.

وقد تنبهت اللجنة العربية لترجمة دائرة المعارف الإسلامية إلى هذه المتغيرات الجديدة. ففى مقدمة الطبعة الثانية من الترجمة العربية يقول أعضاء اللجنة:

«آثرنا أن تصدر الطبعة الثانية من النسخة العربية منقحة مصححة مزيدًا عليها ما نلحق صدوره من أعداد الطبعة الجديدة الأصلية. وقد أشرنا أمام المواد أو التكميلات التى استقيناها منها بعلامة زائد (+)، كما درجنا على إثبات ما فاتنا من مواد وردت فى ملحق الطبعة الأولى من الدائرة الأصلية ولم يصل إليها المستشرقون بعد فى طبعتهم الجديدة، وكذلك درجنا على إثبات المواد القديمة إذا وجدنا فيها معلومات أخرى لا يصح إغفالها وألحقنا بها المواد الجديدة. أما المواد الجديدة كل الجدة، فقد أدخلناها فى طبعتنا الثانية المنقحة حتى لا يفوت القارئ منها شىء. أما المواد التى لم تصدر بعد من الطبعة الجديدة الأصلية فسوف نصدر بها ملاحق نذيل بها طبعتنا فى حينه»[1].

(١) انظر مقدمة الطبعة الثانية لدائرة المعارف الإسلامية - طبعة دار الشعب.

وقد تم الإعلان فى يناير ١٩٩٧م عن إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب ومركز الشارقة للإبداع الفكرى للترجمة الكاملة لدائرة المعارف الإسلامية فى اثنين وثلاثين جزءاً.

(ج) المعاجم

للمستشرقين باع طويل فى مجال المعاجم والقواميس اللغوية. وقد سبق أن أشرنا إلى إنجاز أول قاموس لاتينى عربى فى القرن الثانى عشر الميلادى. ونذكر فى هذا الصدد أيضاً المعجم العربى اللاتينى الذى ألفه چورچ فيلهلم فرايتاج (ت١٨٦١م) ذلك المعجم الذى لا يزال يستعمل حتى اليوم[1] . بالإضافة إلى العديد من القواميس الصغيرة والكبيرة التى تجمع بين العربية وغيرها من لغات أوروبية مختلفة كالإنجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها من لغات أوروبية أخرى.

وهناك مستشرقون ينفقون سنى عمرهم فى إعداد مثل هذه المعاجم. وحسبنا أن نشير هنا إلى معجم اللغة العربية القديمة المرتب حسب المصادر، فقد قضى أوجست فيشر (ت١٩٤٩م) أربعين عاماً فى جمعه وتنسيقه، وتعاون معه عدد من المستشرقين.

ونخص بالذكر هنا أيضاً المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف الذى يشمل كتب الحديث الستة المشهورة بالإضافة إلى مسند الدارمى وموطأ مالك ومسند الإمام أحمد ابن حنبل. وقد تم نشره فى سبعة مجلدات ضخمة فى الفترة من عام ١٩٣٦م حتى عام ١٩٦٩م. وتفيد من هذا المعجم الجامعات والمعاهد الإسلامية كافة فى العالم.

* * *

---

(١) بارت ص١٨.

أهداف المستشرقين

بعد أن تعرفنا على طرف من أعمال المستشرقين يستبد العجب ببعضنا وتعتريه الدهشة لموضوع الاستشراق ويتساءل :

ما الذى يدعو الباحث الغربى إلى بذل كل هذا الجهد والعمر والمال فى دراسة عالم غريب عنه . . يدرس لغاته التى تختلف تمامًا عن لغته ، ويحاول جاهداً فهم آدابها وعقائد أهلها وتاريخهم؟

ما الذى يحمله على ذلك ، وقد كان فى وسعه أن يوجه كل تلك الجهود لدراسة مجالات أوروبية أخرى يمكن أن تظهرَ فيها مواهبه وإمكاناته الفكرية من ناحية ، ومن ناحية أخرى تكون أكثر فائدة له من الناحية العملية؟ وكما يقول نجيب العقيقى :

«فلو أن أحدهم انصرف طوال حياته إلى حل الكلمات المتعارضة أو جمع طوابع البريد النادرة ، أو كتابة القصص البوليسية ، بدل التحقيق والترجمة والتصنيف ، لخرجت به من تلك الجزائر المتعددة التى يعيش فيها المستشرقون إلى العالم الرحب فى القرن العشرين ، ولعادت عليه برخاء من العيش وشهرة بين الناس وسلامة من النقاد»(١) .

ويعتقد نجيب العقيقى أن الدافع العلمى كان وراء كل الجهود الاستشراقية . والعقيقى - على الرغم من أنه عربى - يعتبر نفسه واحداً من المستشرقين . فقد صنف نفسه فى كتابه «المستشرقون» تحت عنوان المدرسة المارونية بوصفه واحداً من أتباع هذه المدرسة التى أسهمت بجهودها فى مجال الاستشراق(٢) .

---

(١) العقيقى ٣/ ٦٠٥ .

(٢) لست أدرى كيف أدرج نجيب العقيقى نفسه فى عداد المستشرقين مع أنه يتحدث عنهم بصيغة «الآخرين» فيقول مثلاً : «لقد بلغ المستشرقون من تعاليم لغاتنا وحفظ تراثنا والكشف عن آثارنا وإحيائها بالنشر والترجمة والتصنيف ذلك المبلغ لمنهج ومميزات ووسائل لم تتوفر جميعًا (كذا) لنا من قبل» . راجع ٣/ ٥٩٨ . وإذا كنا ندهش لصنيع العقيقى ، فإننا فى الوقت نفسه لا نقلل من قيمة الجهد الكبير الذى بذله فى إعداد كتابه القيم «المستشرقون» .

ولكن المستشرق الألمانى المعاصر «رودى بارت» يرى أن الدافع العلمى فى الحركة الاستشراقية بدا أظهر ما يكون اعتباراً من منتصف القرن التاسع عشر. ويعنى هذا فى رأيه أن معظم الكتابات الاستشراقية قبل ذلك كان ينقصها الطابع العلمى. يقول «بارت»:

«. . . إننا فى دراستنا لا نسعى إلى نوايا جانبية غير صافية، بل نسعى إلى البحث عن الحقيقة الخالصة»[1].

ولكن الأمر بالرغم من ذلك ليس أمرًا عاديًا أو من قبيل المصادفة، فاتجاه الأوروبيين لدراسة الشرق وإقامة مؤسسة ضخمة لذلك هى مؤسسة الاستشراق لا بد أن يكون وراءه أهداف معينة.

ويستطيع كل باحث عن تاريخ الاستشراق أن يتبين - بما لا يدع مجالاً للشك - أن الهدف الدينى كان وراء نشأة الاستشراق ودعم الدراسات الإسلامية والعربية فى أوروبا، وقد صاحب الاستشراق طوال مراحل تاريخه، ولم يستطع أن يتخلص منه بصفة نهائية. وحتى نهاية القرن التاسع عشر لم يكن الاستشراق قد حرر نفسه من إسار الخلفية الدينية التى اشتق منها أصلاً إلا بدرجة ضئيلة[2].

والهدف الدينى للاستشراق كان يسير من البداية فى اتجاهات ثلاثة متوازية تعمل معًا جنبًا إلى جنب، وتتمثل هذه الاتجاهات فيما يأتى:

١- محاربة الإسلام والبحث عن نقاط ضعف فيه وإبرازها، والزعم بأنه دين مأخوذ من المسيحية واليهودية، والانتقاص من قيمه والحط من قدر نبيه. . . إلخ.

٢- حماية المسيحيين من خطره بحجب حقائقه عنهم، وإطلاعهم على ما فيه من نقائص مزعومة، وتحذيرهم من خطر الاستسلام لهذا الدين.

٣- التبشير وتنصير المسلمين. وقد أشرنا إلى ذلك فى الفصل السابق. وقد كان قرار مجمع «ڤيينا» الكنسى فى ١٣١٢م وقرار إنشاء كرسى اللغة العربية فى جامعة كمبردج بعد ذلك بأكثر من ثلاثة قرون، وتأسيس مجلة العالم الإسلامى «The Muslim World» عام ١٩١١م عن طريق صمويل زويمر رئيس المبشرين فى الشرق

---

(١) بارت ١٠.

(٢) إدوارد سعيد ص ٢٦٥.

الأوسط، والذى توفى فى أوائل الخمسينيات من القرن الحالى - كانت هذه بعض الشواهد الظاهرة فى اتجاه خدمة الهدف الدينى والعمل من أجله فى محيط الاستشراق.

وإذا كان الهدف الدينى لم يعد ظاهراً الآن فى الكثير من الكتابات الاستشراقية فليس معنى ذلك أنه قد اختفى تماماً. إنه لا يزال يعمل من وراء ستار بوعى أو بغير وعى. فمن الصعب على معظم المستشرقين - المشتغلين بدراسة الإسلام - وأكثرهم متدينون، أن ينسوا أنهم يدرسون ديناً ينكر عقائد أساسية فى المسيحية ويهاجمها ويفندها مثل عقيدة التثليث وعقيدة الصلب والفداء، كما أنه من الصعب عليهم أيضاً أن ينسوا أن الدين الإسلامى قد قضى على المسيحية فى كثير من بلاد الشرق وحل محلها[1].

ونحن إذ نسجل ذلك. فإننا ننبه فى الوقت نفسه إلى أن ذلك ليس حكماً عاماً على جميع المستشرقين. فهناك فريق من المستشرقين قد حاول جاهداً الالتزام بالحيدة والموضوعية وأنكر على كثير من زملائه نزواتهم التى انحرفت بهم عن النزاهة العلمية، وهناك من أنصف فى جانب وتحامل فى جانب آخر.

يقول «مونتجمرى وات»:

«جد الباحثون منذ القرن الثانى عشر فى تعديل الصورة المشوهة التى تولدت فى أوروبا عن الإسلام. وعلى رغم الجهد العلمى الذى بذل فى هذا السبيل، فإن آثار هذا الموقف المجافى للحقيقة التى أحدثتها كتابات القرون المتوسطة فى أوروبا لا تزال قائمة.. فالبحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد على اجتنابها».

ويقول «برنار لويس»:

«لا تزال آثار التعصب الدينى الغربى ظاهرة فى مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة فى الغالب وراء الحواشى المرصوصة فى الأبحاث العلمية».

ويقول «نورمان دانييل»:

---

(١) اللبان ص٣٤.

«على الرغم من المحاولات الجدية المخلصة التى بذلها بعض الباحثين فى العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب المسيحيين من الإسلام، فإنهم لم يتمكنوا أن يتجردوا منها تجردًا تامًا»[1].

ولكن الهدف الدينى لم يكن هو كل شىء، فقد كانت هناك أيضًا أهداف أخرى للاستشراق تقترب أو تبتعد من الهدف الدينى. ومن هذه الأهداف ما يأتى[2].

١ - أهداف علمية

وقد كانت مقصد بعض من ظهروا فى عصر التنوير فى أوروبا، فمنهم من قرأ الكتب الدينية وفحصها وأدرك أن رسالة الإسلام قريبة من الرسالات السماوية ومؤيدة لما جاء فى كتبها من إيمان بالله وكتبه ورسله ودعوة إلى الحق والخير والصلاح، ولكن هؤلاء كانوا قلة.

٢ - أهداف تجارية

وقد ظهرت تلك الأهداف التجارية فى عصر ما قبل الاستعمار الغربى للعالم الإسلامى فى القرنين التاسع عشر والعشرين. فقد كان الغربيون مهتمين بتوسيع تجارتهم والحصول من بلاد الشرق على المواد الأولية لصناعاتهم التى كانت فى طريقها للازدهار. ومن أجل هذا وجدوا أن الحاجة ماسة للسفر إلى البلاد الإسلامية، والتعرف عليها ودراسة جغرافيتها الطبيعية والزراعية والبشرية، حتى يحسنوا التعامل مع تلك البلاد، وتحقيق ما يصبون إليه من وراء ذلك من تحقيق فوائد كثيرة تعود على تجارتهم وصناعتهم بالخير العميم.

ولذلك كانت المؤسسات المالية والشركات وكذلك الملوك فى بعض الأحيان يزودون الباحثين بما يحتاجون إليه من مال، كما كانت الحكومات المعنية تمنحهم الرعاية والحماية.

ونظرًا لأهمية الدين وتأثيره الفعال فى الأخلاق والمعاملات، فقد اتجه هؤلاء الباحثون لدراسته وكتابة التقارير وتأليف الكتب عنه.

---

(١) نقلاً عن المرجع السابق ٣٦، ٣٧.

(٢) انظر: الاستشراق للدكتور إسحق موسى الحسينى ١٥ - ١٧ (محاضرة فى الموسم الثقافى للأزهر).

ولكن هذه الطائفة كانت أيضًا قلة مثل الطائفة السابقة .

٣ـ أهداف سياسية

ظهرت تلك الأهداف السياسية واضحة جلية ، واتسع مداها باتساع رقعة الاستعمار الغربى للعالم الإسلامى فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك . واضطرت الدول الاستعمارية أن تعلم موظفيها فى المستعمرات لغات تلك البلاد ، وأن تدرس لهم آدابها ودينها ليعرفوا كيف يسوسون هذه المستعمرات ويحكمونها .

وقد اتجهوا فى هذه المرحلة إلى العناية باللهجات العامية والعادات السائدة ، كما عنوا بالدين والشريعة .

فئات المستشرقين..

ومن خلال هذا العرض السريع لأهداف المستشرقين المختلفة التى كانت تتداخل مع بعضها فى أحيان كثيرة يتضح لنا أن المستشرقين فئات مختلفة تتراوح بين التعصب والإنصاف . فإذا تجاوزنا من لهم ميول تبشيرية خفية أو سافرة نجد أن المستشرقين العلمانيين ينقسمون إلى فئات مختلفة :

(أ) فريق من طلاب الأساطير والغرائب ، من هؤلاء الذين افتروا على الإسلام واخترع خيالهم المريض حوله الأقاصيص الكاذبة . ولم يكن لهذا الفريق فى سوق العلم نصيب . وقد ظهر هذا الفريق فى بداية نشأة الاستشراق ، واختفى بالتدريج .

(ب) فريق من المرتزقة الذين جندوا دراساتهم وبحوثهم فى خدمة المصالح الغربية الاقتصادية والسياسية والاستعمارية . وقد أشرنا إليهم عند حديثنا عن الاستشراق والاستعمار .

(ج) وفريق من المتغطرسين الذين أخذتهم العزة بالإثم وأعمتهم الضلالة عن النزاهة العلمية ، فراحت أقلامهم تقطر حقدًا وعداوة وطعنًا فى الإسلام من أمثال «بدويل» و«بريدو» و«سيل» من القرن الثامن عشر . وقد كان لكتابات بعضهم مثل «سيل» أثر كبير فى الغرب لمدة طويلة . ويتساوى مع هؤلاء فى الحقد والعداوة للإسلام مجموعة من الملحدين الذين ينالون من الإسلام نيلهم من المسيحية .

(د) فرق تعرض للإسلام باسم البحث العلمي، ولكنهم انحرفوا عن جادة الصواب فراحوا يتلمسون نقاط ضعف في الإسلام، ويشككون في صحة الرسالة الإسلامية، وفي التوحيد الإسلامي، وفي القرآن من حيث مصدره أو نصه، وفي الحديث من حيث صحته، وفي قيمة الفقه الإسلامي الذاتية، وفي قدرة اللغة العربية على التطور . . . إلخ.

(هـ) وهناك فريق من المستشرقين التزم في دراسته للإسلام بالموضوعية والنزاهة العلمية، وأنصف الإسلام والمسلمين. وقد أدى الأمر ببعضهم إلى اعتناق الإسلام[1].

(و) وهناك فريق من المستشرقين توفر على دراسة اللغة العربية وفقه اللغة والأدب العربي أو اشتغل بالمعاجم وما شابه ذلك، ولهؤلاء بحوث قيمة مفيدة.

ويهمنا عند عرض آراء المستشرقين حول الإسلام أن نناقش تلك الآراء الاستشراقية الأساسية التي ترسخت في الأذهان، وأصبح لها حجية أو شبه حجية. وخاصة إذا كانت هذه الآراء صادرة باسم العلم والمنهج العلمي واستخدام أساليب النقد والتحليل في البحث. فقد ينخدع بعضهم بتلك الشعارات العلمية. ولكن البحث والتنقيب في هذه الآراء يظهر لهم أنهم كانوا يجرون وراء سراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاؤوه لم يجدوه شيئًا.

أما الفرق الأخرى، فإما أن أمرها مفضوح، وغشها مكشوف، وكذبها صراح، وهذه ليس لنا معها حديث؛ لأن المستشرقين أنفسهم يعترفون الآن بأن مثل هذه الفرق لا وزن لها، وإما أنها فرق منصفة للإسلام أو لا صلة لدراستها بالإسلام، ولذلك فهي بعيدة عن موطن الشبهات.

ولعلنا في مناسبة أخرى نعرض لآراء المستشرقين المنصفين للإسلام، ونوفيهم حقهم من التقدير.

* * *

---

(١) راجع: العقيقي ٣/ ٦١٩ وما بعدها، والسباعي: الاستشراق ص ٢٢ وما بعدها.

منهج المستشرقين

وقبل عرض أمثلة من آراء هذه الفئة التى صدرت آراؤها ومواقفها باسم العلم والموضوعية، يهمنا هنا أن نتعرف على المنهج الذى يستخدمه المستشرقون فى دراستهم للإسلام.

يقول «رودى بارت»:

«. . . فنحن معشر المستشرقين، عندما نقوم اليوم بدراسات فى العلوم العربية والعلوم الإسلامية لا نقوم بها فقط لكى نبرهن على ضعة العالم العربى والإسلامى، بل على العكس، نحن نبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الذى يمثله الإسلام، ومظاهره المختلفة، والذى عبر عنه الأدب العربى كتابة، ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ كل شىء ترويه المصادر على عواهنه دون أن نعمل فيه النظر، بل نقيم وزنًا فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخى أو يبدو وكأنه يثبت أمامه، ونحن فى هذا نطبق على الإسلام وتاريخه، وعلى المؤلفات العربية التى نشتغل بها المعيار النقدى نفسه الذى نطبقه على تاريخ الفكر عندنا وعلى المصادر المدونة لعالمنا نحن»[(١)] .

وقد لا يبدو على هذا المنهج غبار من وجهة النظر العلمية. «فالقوم يدرسون العلوم الإسلامية العربية، ويضعون نظريات، ويكونون آراء فى أثناء ما يقومون به من دراسات، ويهتمون بتقديم أدلة وأسانيد لهذه الآراء والنظريات، يستمدونها من المراجع الإسلامية نفسها، وهذا العمل فى ظاهره عمل علمى سليم. ولكن الفحص الدقيق أثبت أن كثيراً منه مصنوع، وكثيراً ما يكون الدافع إليه الرغبة فى التجريح، وتوهين العقيدة الدينية والشريعة الإسلامية»[(٢)] .

---

(١) بارت ص١٠ .
(٢) اللبان ٣٢ .

فقد عرض مثلاً أحد المستشرقين المعاصرين وهو (جاستون فييت) فى كتابه «مجد الإسلام» - تاريخ الإسلام عن طريق صفحات مختارة من أقوال المؤرخين والكتاب المعاصرين لكل فترة من فترات هذا التاريخ. وعلى الرغم من ذلك، فإن هذا الكتاب ينضح بالحقد والطعن فى الإسلام وتاريخه؛ لأن «جاستون فييت» اختار فقط النصوص التى تتفق مع الاتجاه الذى اختاره هو سلفًا، وهو اتجاه يتسم بالعداء والكراهية للإسلام والمسلمين[1].

والبحث العلمى النزيه لا صلة له إطلاقًا بالرغبة فى الطعن والتجريح والبحث عن نقاط الضعف والتشويه، وتصيد الأخطاء. والأسلوب العلمى يحتم ضرورة الاستيثاق من صحة النصوص والأسانيد التى نستنبط منها ما نستنبط من نظريات، ولكن الرغبة فى التجريح والتشويه كثيراً ما حملت المستشرقين على التماس أسانيد واهية مرفوضة يؤيدون بها ما يقررونه من نظريات. «فهم لا يترددون فى الاعتماد على الأحاديث الضعيفة وهم ينقبون فى طوايا كتب التاريخ والسير عن أخبار ضعيفة غير ثابتة يدعمون بها آراءهم. ولهم صبر لا ينفد فى استكشاف هذه المخبوءات واستغلال الضعيف من الدلالات. ومهما يكن من شىء فهم لا يستوعبون دراسة ما بأيديهم من المسائل، وكثيراً ما يغفلون النصوص والأخبار التى تناقض ما يقررون»[2].

وهذا بطبيعة الحال أمر ليس من العلم فى شىء، وإنما هو انحراف عن النهج العلمى السليم. وهذا الانحراف العلمى هو للأسف طابع الكثير من الدراسات الاستشراقية حول الإسلام، الأمر الذى يجعلنا - نحن المسلمين - نقف من هذه الدراسات موقف الحذر، ويحتم علينا الكشف عما فيها من زيف وخداع. فالكثير من النظريات والآراء التى يقولون بها مبنية على افتراضات لا أساس لها وتخمينات لا سند لها.

والواقع أنه ليس بالأمر الغريب أن يختلف المستشرقون معنا - نحن المسلمين - فى الرأى حول الإسلام، وإنما الغريب أن يتفقوا معنا فى الرأى، وذلك لأن منطلق تفكيرهم بالنسبة للإسلام ونبيه ﷺ يختلف عن المنطلق الذى يصدر عنه تفكير المسلمين. ولهذا تختلف وجهات النظر بيننا وبينهم، وستظل مختلفة. فلا ننتظر منهم

---

(١) انظر فى ذلك النقد القيم لكتاب فييت «مجد الإسلام» للدكتور حسين مؤنس (ملحق بكتاب الدكتور البهى: الفكر الإسلامى الحديث من ص ٥٦٥ إلى ٥٧٧).

(٢) اللبان ٣٣.

أن يتبنوا وجهة نظرنا التى تنظر إلى الإسلام على أنه دين سماوى ختم الله به الرسالات السماوية، وأن محمداً ﷺ خاتم النبيين، وأن القرآن الكريم وحى الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأنهم لو فعلوا ذلك لأصبحوا مسلمين، وهذا ما حدث بالفعل بالنسبة لبعضهم ممن تحولوا إلى الإسلام. وهذا التحول إلى الإسلام يعنى فى الوقت نفسه التحول عن الخط الاستشراقى.

ونحن لا نطلب من كل مستشرق أن يغير معتقده ويعتقد ما نعتقده عندما يكتب عن الإسلام. ولكن هناك أوليات بديهية يتطلبها المنهج العلمى السليم. فعندما أرفض وجهة نظر معينة لا بد أن أبين للقارئ أولاً وجهة النظر هذه من خلال فهم أصحابها لها ثم لى بعد ذلك أن أوافقها أو أخالفها.

وعلى هذا الأساس نقول: إن الكيان الإسلامى كله يقوم على أساس الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ الذى تلقى القرآن وحيًا من عند الله. ويجب على العالم النزيه والمؤرخ المحايد أن يقول ذلك لقرائه عندما يتعرض للحديث عن الإسلام حتى يستطيع القارئ أن يفهم سر قوة هذا الإيمان فى تاريخ المسلمين[1]. ثم له بعد ذلك أن يخالف المسلمين فى معتقداتهم وتصوراتهم أو يوافقهم «غير أن هذا المنهج المنطقى والطبيعى فى العرض قلما يتبع مع الأسف، وكثيراً ما يحدث العكس. فيتعرض القارئ نتيجة لذلك - ما لم يكن على علم - إلى شىء من الإيحاء برأى معين، أو يتعرض على الأقل إلى اختلاط فى الأمور يجعله عاجزاً عن التمييز بين الأصل المتوارث لدى جماعة المسلمين وبين رأى الكاتب. وهكذا نجد كثيراً من المستشرقين الذين يحملون غيرهم أعباء معارفهم الخاصة يهملون ملاحظة مبادئ أولية للمنهج العلمى فى معالجة المسائل التاريخية. فهم يؤكدون مثلاً أن القرآن من إنشاء محمد. ثم يذهبون مذهبًا بعيداً فى تأسيس الأحكام التاريخية والعقيدية والأدبية وغيرها على هذا التأكيد، وسرعان ما ترتفع هذه بمحض الشهرة إلى مرتبة الحقائق»[2].

وقد يكون صحيحًا القول بأن ألوان التحامل القديم على الإسلام قد خفت حدتها إلى درجة كبيرة منذ مطلع القرن العشرين، ولكنها للأسف الشديد لا تزال تعيش قوية،

---

(١) د. حسين مؤنس (المرجع السابق) ٥٦٩.

(٢) طيباوى (الفكر الإسلامى الحديث للدكتور البهى) ٥٩١/ ٥٩٢. انظر أيضًا ص ٥٨٨.

ولا تزال هناك فئة من الباحثين الغربيين المهتمين بدراسة الإسلام تحرص حتى اليوم على نشر ألوان التحامل القديم فى العالم الغربى على نطاق واسع بأساليب مختلفة.

فإذا عبر المسلمون عن استيائهم إزاء التحامل الظالم على الإسلام من جانب المستشرقين، فإن هذا يعنى فى نظر بعض الباحثين الغربيين عدم قدرة المسلمين على فهم الأمور فهمًا علميًا، فالمستشرقون ليس لديهم أحكام مسبقة كما نعتقد، والحقائق التى يتوصلون إليها تتسم بالحياد والموضوعية والعلمية[١].

ومعنى ذلك أن علينا أن نتقبل ما يقوله السادة المستشرقون عنا وعن ديننا ونحن صاغرون، وليس لنا حتى مجرد حق التعبير عن الاستياء وإلا فنحن متخلفون جاهلون، قاصرون عن فهم الأمور فهمًا علميًا.

ولست أدرى من الذى ندب مثل هؤلاء الناس المتغطرسين لتنويرنا؟ ومن أعطاهم حق الوصاية الفكرية علينا؟

أليس هذا يعد تدخلاً سافرًا فى أخص أمورنا الذاتية؟ وهل يقبل هؤلاء أن نتدخل فى أى أمر من أمورهم صغر أم كبر؟!

* * *

(١) H.A.Fischer - Barnicol: Die Islamische Revolution, Stuttgart, P,60.

نماذج من آراء المستشرقين حول الإسلام

القرآن

١ ـ مصدر القرآن

القرآن الكريم هو كتاب الإسلام الأول الذى تقوم على أساسه عقائد الدين الإسلامى وشريعته، وتنبثق منه أخلاق الإسلام وآدابه. فإذا ثبت أنه وحى الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإن الإيمان به يصبح أمرًا لا مفر منه.

ومن أجل ذلك اتجهت جهود المناهضين للإسلام قديمًا وحديثًا إلى محاولة زعزعة الاعتقاد فى صحة القرآن وفى مصدره. وقد بذل الوثنيون المكيون جهدهم فى مقاومة فكرة أن القرآن وحى من عند الله. فزعموا أنه ﴿إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ...﴾ [الفرقان: ٤] وأنه ﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان: ٥] وأن محمدًا ﴿... يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ...﴾ [النحل: ١٠٣]، أو أن القرآن قول ساحر أو كاهن. وكانوا يهدفون من وراء ذلك كله إلى إبطال القول بأنه وحى السماء إلى محمد ﷺ لهداية البشر.

وقد حذا المستشرقون المتحاملون على الإسلام فى موقفهم من القرآن حذو مشركى مكة. وبذلوا محاولات مستميتة لبيان أن القرآن ليس وحيًا من عند الله، وإنما هو من تأليف محمد ﷺ. ورددوا أحيانًا الاعتراضات التى قال بها الوثنيون قديمًا رغم دحض القرآن لها.

يقول (چورچ سيل ـ G.Sale) فى مقدمة ترجمته الإنجليزية لمعانى القرآن التى صدرت عام ١٧٣٦م ما يأتى:

«أما أن محمدًا كان فى الحقيقة مؤلف القرآن والمخترع الرئيسى له، فأمر لا يقبل

الجدل، وإن كان من المرجح ـ مع ذلك ـ أن المعاونة التى حصل عليها من غيره فى خطته هذه لم تكن معاونة يسيرة. وهذا واضح فى أن مواطنيه لم يتركوا الاعتراض عليه بذلك»[1].

وقد كان «چورج سيل» ممن لهم اهتمام بالغ بالإسلام لدرجة أنه وصف بأنه نصف مسلم. وقد صادفت المقدمة التمهيدية للترجمة التى جزم فيها بتأليف محمد للقرآن نجاحًا عظيمًا فى أوروبا، الأمر الذى أدى بمستشرق آخر هو «كاسميركى» أن يجعل من مقدمة «سيل» مقدمة لترجمته الفرنسية لمعانى القرآن التى صدرت عام ١٨٤١م. وقد استطاعت هذه المقدمة أن تثبت وجودها زمنًا طويلاً جدًا كمصدر علمى موثوق به لدى المستشرقين من حيث اشتمالها على عرض شامل للدين الإسلامى[2].

وقد أصبحت قصة تأليف محمد للقرآن لدى المستشرقين «أمرًا لا يقبل الجدل»، كما يقول «سيل»، غير أن من المستشرقين من يذكر ذلك صراحة كما فعل «سيل» من قبل، وكما فعل «رينان» من بعده، إذ اعتبر الرسالة المحمدية امتدادًا طبيعيًا للحركة الدينية التى كانت سائدة فى عصر محمدﷺ دون أن تشتمل هذه الرسالة على أى جديد[3]. ومنهم من يذكر ذلك بأسلوب أقل حدة وبطريق غير مباشر، وبعض المستشرقين المعاصرين ينحو هذا المنحى، الأمر الذى يجعل رأيهم يبدو وكأنه استنتاج علمى.

وإذا كان محمد هو مؤلف القرآن فإن الفرية الاستشراقية تحاول أن تكون محبوكة بقدر الإمكان، وذلك ببيان المصادر التى اعتمد عليها محمد فى كتابته للقرآن. ويذهب الخيال الاستشراقى فى هذا الصدد كل مذهب لإثبات مزاعمه.

ويرى «ريتشارد بل ـ Richard Bell»[4] مؤلف كتاب مقدمة القرآن أن النبىﷺ قد اعتمد فى كتابته للقرآن على الكتاب المقدس، وخاصة على العهد القديم فى قسم

---

(١) نقلاً عن اللبان ٤٤.

(٢) انظر بحثنا (الإسلام فى الفكر الاستشراقى) المنشور فى العدد الثانى من حولية كلية الشريعة بجامعة قطر ص ١٠٩.

انظر أيضًا: القرآن: نزوله، ترجمته وتأثيره. تأليف «بلاشير» وترجمة رضا سعادة. ص ١٩ ـ دار الكتاب اللبنانى ١٩٧٤م.

(٣) د. محمد عبدالله دراز مدخل إلى القرآن ص ١٣٠. دار القلم بالكويت ١٩٧٤م.

(٤) من رجال الدين وأستاذ اللغة العربية بجامعة أدنبرة. وقد أمضى سنين كثيرة فى دراسة القرآن وتاريخه. وقد أكد فى أول كتبه عن القرآن العلاقات النصرانية بالنبىﷺ. وقد صدرت ترجمته الإنجليزية للقرآن فى جزأين فى عامى ١٩٣٧ـ١٩٣٩م. (انظر العقيقى ٢/ ٩٣، ٩٤).

القصص. فبعض قصص العقاب كقصص عاد وثمود مستمد من مصادر عربية، ولكن الجانب الأكبر من المادة التى استعملها محمد ليفسر تعاليمه ويدعمها قد استمده من مصادر يهودية ونصرانية. وقد كانت فرصته فى المدينة للتعرف على ما فى العهد القديم أفضل من وضعه السابق فى مكة حيث كان على اتصال بالجاليات اليهودية فى المدينة، وعن طريقها حصل على قسط غير قليل من المعرفة بكتب موسى على الأقل[1].

ويذهب المستشرق «لوت» إلى أن النبى ﷺ مدين بفكرة فواتح السور من مثل: حَم، وطَسم، والم... إلخ، لتأثير أجنبى، ويرجح أنه تأثير يهودى، ظنًا منه أن السور التى بدئت بهذه الفواتح مدنية خضع فيها النبى ﷺ لتأثير اليهود. ولو دقق فى الأمر لعلم أن سبعًا وعشرين سورة من تلك السور التسع والعشرين مكية، وأن اثنتين فقط من هذه السور مدنية، وهما سورتا البقرة وآل عمران[2].

وعن التأثير المسيحى يقول «بارت»:

«لقد كانت معلومات الناس فى مكة - فى عصر النبى - عن المسيحية محدودة وناقصة، ولم يكن المسيحيون العرب سائرين فى معتقداتهم فى الاتجاه الصحيح. ولهذا كان هناك مجال لظهور الآراء البدعية المنحرفة، ولولا ذلك لما كان محمد على علم بأمثال تلك الآراء التى تنكر صلب المسيح، وتذهب إلى أن نظرية التثليث النصرانية لا تعنى الآب والابن والروح القدس، وإنما تعنى الله وعيسى ومريم. وعلى أية حال، فإن المعارف التى استطاع محمد أن يجمعها عن حياة المسيح وأثره كانت قليلة ومحدودة. وعلى العكس من ذلك كان محمد يعرف الشىء الكثير عن ميلاد عيسى وعن أمه مريم[3].

وما يقصد أن يقوله «بارت» هنا واضح وهو أن المعلومات التى وردت فى القرآن عن المسيحية وعن المسيح وأمه كانت معلومات جمعها محمد من البيئة التى كان يعيش فيها. وقد كانت المعلومات الشائعة آنذاك إما خاطئة أو محدودة. فمحمد إذن هو مؤلف القرآن.

---

(١) اللبان ٤٤/ ٤٥.

(٢) راجع نظرات استشراقية فى الإسلام للدكتور غلاب ص ٤١/ ٤٢.

(٣) انظر كتابنا: الإسلام فى مرآة الفكر الغربى ص ٧٢ وما بعدها.

ويزعم المستشرقون أيضًا أن محمداً تعرف على المسيحية من بحيرى الراهب[1] فى رحلته التجارية إلى الشام. وقد تمثل محمد فى نفسه ما سمعه من بحيرى الراهب وما عرفه من أتباع اليهودية، وخرج على الناس يعلن دينه الجديد الذى لفّقه من الدينين الكبيرين.

وهذه كلها مزاعم واهية لا حظّ لها من العلم ولا سند لها من التاريخ، وإنما هى تخمينات وافتراضات يضعها أصحابها كما لو كانت «حقائق» ثابتة لا تقبل الجدل».

وقد تناول الدكتور محمد عبدالله دراز - رحمه الله - فى دراسته القيمة (مدخل إلى القرآن) جميع الافتراضات المتعلقة باحتمال وجود مصدر بشرى للقرآن. وناقشها مناقشة علمية، وأظهر زيفها وبطلانها، وانتهى إلى القول بأن:

«جميع سبل البحث التى وقعت تحت أيدينا وناقشناها ثبت ضعفها وعدم قدرتها على تقديم أى احتمال لطريق طبيعى أتاح له (أى للنبى ﷺ) فرصة الاتصال بالحقائق المقدسة. ورغم الجهد الذهنى الذى نبذله لتضخيم معلوماته السمعية ومعارف بيئته، فإنه يتعذر علينا اعتبارها تفسيراً كافيًا لهذا البناء الشامخ من العلوم الواسعة المفصلة التى يقدمها لنا القرآن الكريم فى مجال الدين والتاريخ والأخلاق والقانون والكون... إلخ[2].

فلم يبق إلا أنه وحى الله لنبيه ﷺ الذى أرسله رحمة للناس أجمعين.

ويحق لنا أن نسأل الذين يجادلون فى مصدر القرآن، ويرون أنه مأخوذ من النصرانية واليهودية أو من البيئة العربية.

ما المانع أن يكون القرآن وحيًا أصيلاً مأخوذاً من المنبع نفسه الذى اغترفت منه الديانات السماوية الصحيحة؟

ما المانع أن يكون الإسلام هو الحلقة الأخيرة من حلقات الوحى الإلهى الذى أقام الاتصال بين السماء والأرض على مدى تاريخ البشرية؟

---

(١) لا يزال بعض المستشرقين يصر على تضخيم أثر مقابلة الرسول ﷺ لبحيرى الراهب رغم أنه لا يوجد لذلك سند صحيح. وقد قال هوارت فى بحث له حول هذا الموضوع: «لا تسمح النصوص العربية التى عثر عليها ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت بأن نرى فى الدور المسند إلى هذا الراهب السورى إلا مجرد قصة من نسج الخيال». انظر: د. دراز: مدخل ص ١٣٤ هامش١.

(٢) د. دراز: مدخل ص ١٦٥.

لماذا تحرمون على الإسلام ما تبيحونه لليهودية والنصرانية؟

هل هو التعصب الأعمى، أم هى الكراهية لهذا الدين الذى جاء مصححًا لما طرأ على الديانات السابقة من أوهام وأباطيل، وكاشفًا لوجه الحق فيها؟

هل مبدأ جواز اتصال السماء بالأرض عن طريق الوحى مبدأ مسلم به أم لا؟

إنه إذا كان هذا المبدأ مسلمًا به فلا معنى لأن تحتكره اليهودية والنصرانية وتمنعه عن الإسلام، وإذا لم يكن مسلمًا به فلا مجال للديانات جميعها؟

لقد جاء القرآن الكريم بما هو أعلى وأوسع وأكمل من كل المعلومات التى كانت لدى بحيرى الراهب ولدى كل النصارى واليهود فى شتى بقاع العالم، وجاء القرآن مصدقًا لما نزل على موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم من حيث كون الكتب التى نزلت عليهم هى فى الأصل وحى من عند الله، كما جاء القرآن مهيمنًا على هذه الكتب وحاكمًا عليها، فذكر القرآن أن اليهود والنصارى أوتوا نصيبًا من الكتاب، وأنهم نسوا حظًا مما ذكروا به، وأنهم حرّفوا الكلم عن مواضعه، كما بين القرآن الكريم كثيراً من القضايا الكبرى التى كانت موضع خلاف بينهم فى العقائد والأحكام والأخبار[1].

وهناك العديد من الأمثلة التى خالف فيها القرآن ما ورد من أخبار فى كلٍّ من العهد القديم والجديد.

فهل أخذ محمد ﷺ ذلك من الرهبان فى رحلته التجارية إلى الشام؟ وهل كان كفار مكة يسكتون عن ذلك لو عرفوا أن محمداً استقى معلوماته من اليهود أو النصارى؟

لقد كانوا يلجأون إلى أوهى المزاعم، فلماذا سكتوا عن زعم تلقى محمد عن اليهود والنصارى؟

لقد زعم الزاعمون أن الذى يعلِّم محمداً هو عبد رومى كان يصنع السيوف فى مكة، فرد عليهم القرآن الكريم زعمهم قائلاً:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

---

(١) الوحى المحمدى للسيد محمد رشيد رضا (القاهرة ١٣٥٤هـ) ص ١٠٩.

وحتى المعلومات التى ذكرت فى القرآن وكان لها أصل فى كتب اليهود أو النصارى لم يكن محمد ولا قومه يعلمون شيئًا عنها: ويشير القرآن إلى ذلك بعد قصة نوح مثلاً:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود: ٤٩).

وبعد قصة يوسف يقول القرآن:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾(يوسف: ١٠٢).

كما أن هناك من أخبار القرآن ما لم يكن يعرفه أهل الكتاب.. فقد ذكر القرآن الكريم بعد قصة زكريا وولادة مريم - عليهما السلام - وكفالته لها قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[1] [آل عمران: ٤٤]. فمن أين أخذ محمد ﷺ كل ذلك؟

إنه وحى السماء، فالإسلام ليس دينًا تابعًا لأى دين آخر، ولكنه الدين الذى أراد الله أن يكون خاتم الأديان، وآخر حلقة فى قصة اتصال السماء بالأرض لهداية البشر، وقد أعلن القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى: ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا...﴾ [المائدة: ٣].

ونود فى هذا الصدد أن نذكر السادة المستشرقين بأن مهد اليهودية والنصرانية والإسلام هو الشرق... فالشرق هو مهبط الرسالات السماوية، وعلى أرضه سار رسل الله يحملون رسالته إلى الناس جميعًا، والمقياس لهذه الأديان جميعًا لا بد أن يكون مقياسًا واحدًا لأن مصدرها واحد. ولكن هذا المقياس الذى نعنيه لن يكون بالتأكيد ذلك المقياس الذى يريد أن يطبقه المستشرقون على علاقة هذه الأديان بعضها ببعض، وهو مقياس التأثير والتأثر كما لو أن الأمر يدور حول شيء إنسانى يخضع لهذا المقياس الإنسانى. ولهذا، فنحن نرفض - ومعنا كل الحق - منهج المستشرقين فى دراسة

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٦.

الإسلام لأنه منهج مصطنع جاء وليد اللاهوت الأوروبى، ولأنه منهج يقصر عن فهم طبيعة الأديان السماوية، ويحاول أن يضعها فى صعيد واحد مع الاتجاهات الفكرية الإنسانية.

٢ـ صحة النص القرآنى

بعد أن تعرفنا على مزاعم بعض المستشرقين فى التشكيك فى مصدر القرآن نأتى الآن للحديث عن نقطة أخرى تسير فى اتجاه التشكيك نفسه، ولكنها فى هذه المرة تشكك فى صحة النص القرآنى. وكأنهم بذلك يريدون أن يردوا على القرآن بالسلاح نفسه. فقد قرر القرآن أن الكتب السماوية السابقة قد أصابها التحريف والتبديل على يد أتباعها.

وقد تكلم المستشرقون كثيراً فى موضوع القراءات بالأحرف السبعة[1] محاولين إثبات أن القراءة كانت حرة طليقة، الأمر الذى جعل تعرض نص القرآن للتغيير أمراً لا مفر منه. وهم بذلك يوهمون بأن التدوين وقع فى جو هذه الحرية، وفى هذا الجو تم تسجيل قراءات مختلفة. وهذه القراءات التى نجمت عن ذلك لم تكن هى الصورة التى ورد بها الوحى أساساً. ونتيجة ذلك كله هى القول بحدوث تغيير فى النص القرآنى.

وقد روج بعض المستشرقين لفكرة (القراءة بالمعنى) مما يعطى للمزاعم السابقة سنداً تعتمد عليه. فقد ظهرت هذه النظرية فى زعم بعضهم فى العهد الأموى وسادت الجو وتلقاها الناس بالقبول، فلم يكن نص القرآن بحروفه بالنسبة لبعض المؤمنين هو المهم ولكن المهم هو روح النص. ومن هنا ظل اختيار الوجه (الحرف) فى القراءات التى تقوم على الترادف المحض أمراً لا بأس به ولا يثير الاهتمام. وهكذا يمكن أن يخضع تحديد النص لهوى كل إنسان.

---

(١) بناء على ما ورد فى «الصحيحين» أن رسول الله قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف». وقد ورد فى بعض الروايات الضعيفة التى أخرجها الطبرى وغيره عن أبى هريرة زيادة فى هذا الحديث تقول: «فاقرؤوا ولا حرج، ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب ولا ذكر عذاب برحمة». وعلى مثل هذه الروايات الضعيفة المرفوضة يعتمد المستشرقون فى تشكيكهم فى صحة النص القرآنى، وقد رفض الشيعة حديث الأحرف السبعة من أساسه (راجع البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشى ج١ ص٢١٢، القاهرة ١٩٥٧م؛ ومناهل العرفان فى علوم القرآن للشيخ محمد عبدالعظيم الزرقانى ج١ ص١٣٧ (الطبعة الثالثة ـ القاهرة ـ بدون تاريخ).

إن اختلاف القراءات أمر ثابت لا ننكره، ولكن الأمر الذى لا شك فيه أيضًا أن القرآن الكريم كان وحيًا باللفظ والمعنى معًا. ومن أجل ذلك كان الرسول ﷺ حريصًا كل الحرص على تسجيل الوحى فور نزوله والعناية بحفظه فى السجلات التى سطر فيها[1] وليس صحيحًا ما يردده «بلاشير» من أن فكرة تدوين الوحى لم تنشأ إلا بعد إقامة النبى ﷺ فى المدينة، وأن التدوين كان جزئيًا وناتجًا عن جهود فردية ومثارًا للاختلاف[2] .

فالثابت أن فكرة تدوين الوحى كانت قائمة منذ نزوله ـ وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام كلما جاءه الوحى وتلاه على الحاضرين أملاه من فوره على كتبة الوحى ليدونوه، وقد بلغ عدد كتّاب الوحى ـ كما يذكر الثقات من العلماء ـ تسعة وعشرين كاتبًا، أشهرهم الخلفاء الراشدون الأربعة، ومعاوية، والزبير بن العوام، وسعيد بن العاص، وعمرو بن العاص، وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت[3] .

وأما ما يتعلق بمسألة الأوجه السبعة فى القراءة، فإن الأمر فيها لم يكن متروكًا لأهواء الناس، وإنما كان محكومًا بما يقرئه الرسول ﷺ للناس من أوجه للقراءة كان القصد منها التخفيف على الناس فى أول الأمر «فأذن لكلٍّ منهم أن يقرأ على حرفه، أى على طريقته فى اللغة، إلى أن انضبط الأمر فى آخر العهد وتدربت الألسن، وتمكن الناس من الاقتصار على الطريقة الواحدة، فعارض جبريل النبى ﷺ القرآن مرتين فى السنة الأخيرة، واستقر على ما هو عليه الآن». وهذا ما عليه أكثر علماء المسلمين[4] .

والواقع الذى عليه المسلمون منذ أربعة عشر قرنًا هو تمسكهم الشديد بالمحافظة على الوحى القرآنى لفظًا ومعنى. ولا يوجد مسلم يستبيح لنفسه أن يقرأ القرآن بأى لفظ شاء ما دام يحافظ على المعنى. وليبحث المستشرقون اليوم فى أى مكان فى العالم عن مسلم يستبيح لنفسه مثل ذلك وسيعييهم البحث، فلماذا إذن هذا التشكيك فى صحة النص القرآنى، وهم يعلمون مدى حرص المسلمين فى السابق واللاحق على تقديس نص القرآن لفظًا ومعنى؟

---

(١) اللبان ٤٨ وما بعدها.
(٢) بلاشير: القرآن ص ٢٨/ ٢٩.
(٣) د. دراز: مدخل ص ٣٤.
(٤) راجع البرهان فى علوم القرآن ج ١ ص ٢١٣.

إنهم يبحثون دائمًا ـ كما سبق أن أشرنا ـ عن الآراء المرجوحة والأسانيد الضعيفة ليبنوا عليها نظريات لا أساس لها من التاريخ الصحيح ولا من الواقع . فنحن المسلمين قد تلقينا القرآن الكريم عن الرسول ﷺ ، وهو بدوره تلقاه وحيًا من الله . ولم يحدث أن أصاب هذا القرآن أى تغيير أو تبديل على مدى تاريخه الطويل . وهذه ميزة فريدة انفرد بها القرآن وحده من بين الكتب السماوية كافة ، الأمر الذى يحمل فى طياته صحة هذا الدين الذى ختم به الله سائر الديانات السماوية .

وفى هذا الصدد نورد ما ذكره «رودى بارت» فى مقدمة ترجمته الألمانية للقرآن ـ وكأنه يرد على زملائه الذين راحوا يشككون فى صحة النص القرآنى ـ يقول «بارت» :

«ليس لدينا أى سبب يحملنا على الاعتقاد بأن هناك آية آية فى القرآن كله لم ترد عن محمد»(١) .

ويتصل بالتشكيك فى صحة القرآن القول بأن لغة القرآن «لا تتميز عن لغة الأدب الدنيوى بعصمة يقينية . وهذا أمر يجده المرء فى عدم اتفاق أصحاب النبى فيما بينهم على تبعية بعض فقرات معينة للقرآن ، فابن مسعود ـ مثلاً ـ يرى أن سورة الفاتحة والمعوذتين ليست من القرآن على الرغم من أن هذه السور تعد من أشهر المشهورات(٢) .

وهذا الرأى المنسوب إلى ابن مسعود باطل من أساسه . وقد رفضه علماء المسلمين .

يقول الإمام فخر الدين الرازى :

«نقل فى بعض الكتب القديمة أن ابن مسعود كان ينكر كون سورة الفاتحة والمعوذتين من القرآن ، وهو أمر فى غاية الصعوبة ، لأنا إن قلنا : إن النقل المتواتر كان حاصلاً فى عصر الصحابة يكون ذلك من القرآن ، فإنكاره يوجب الكفر ، وإن قلنا : لم يكن حاصلاً فى ذلك الزمان ، فيلزم أن القرآن ليس بمتواتر فى الأصل» .

ومن أجل ذلك يقول الفخر الرازى بأن نقل هذا المذهب عن ابن مسعود نقل باطل .

وكذلك يقول القاضى أبو بكر : إنه لم يصح عن ابن مسعود أن هذه السور ليست من القرآن . أما الإمام النووى فيقول فى شرح المهذب :

---

(١) Rudi Paret: Der Koran. Uebersetzung. Stuttgart, 1980. p.5.

(٢) Hermann Stieglecker. Die Glaubenslehren des Islam. Paderborn, 1962. P.400.

«أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن، وأن من جحد منها شيئًا كفر، وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح».

ويقول ابن حزم فى كتاب «القدح المعلى تتميم المحلى»:

«هذا كذب على ابن مسعود وموضوع، وإنما صح عنه (أى عن ابن مسعود) قراءة عاصم عن زرّ (بن حبيش) عنه، وفيها المعوذتان والفاتحة»[1] .

وقد ذكر الباقلانى فى كتابه «إعجاز القرآن»[2] أنه لو صح أن ابن مسعود كان قد أنكر السورتين على ما ادعوا لكانت الصحابة تناظره على ذلك، وكان يظهر وينتشر. فقد تناظروا فى أقل من هذا، وهذا أمر يوجب التكفير والتضليل، فكيف يجوز أن يقع التخفيف فيه؟ وقد علمنا إجماعهم على ما جمعوه فى المصحف، فكيف يقدح بمثل هذه الحكايات الشاذة فى الإجماع المقرر والاتفاق المعروف؟

وهكذا، يتضح لنا أن هذا الرأى المزعوم لا يستحق الوقوف عنده أو الاهتمام به على النحو الذى يسلكه المستشرقون، فلم يحدث فى تاريخ المسلمين أن كان لأمثال هذه الآراء الباطلة أى تأثير على الإطلاق فى توجيه معتقداتهم، ولم يذكر لنا التاريخ أن هناك طائفة من المسلمين تبنت هذا الرأى الباطل المنسوب إلى ابن مسعود، وعلى ذلك فلا يترتب عليه أدنى شك فى تميز لغة القرآن عن لغة الأدب الدنيوى المعهود.

فلغة القرآن لها خصوصية التفرد. وقد عجزت فصاحة العرب وبلاغتهم - وهم أصحاب الفصاحة والبلاغة - عن محاكاة لغة القرآن. وقد تحداهم الوحى أن يأتوا ولو بسورة من مثله، ولكنهم عجزوا عن قبول التحدى الذى لا يزال وسيظل قائمًا إلى أن تقوم الساعة. فلو كان القرآن غير خارج عن العادة لأتوا بمثله أو عرضوا من كلام فصحائهم وبلغائهم ما يعارضه. فلما لم يشتغلوا بذلك علم أنهم فطنوا لخروج ذلك عن أوزان كلامهم وأساليب نظمهم وزالت أطماعهم عنه[3] .

فإذا جاء مستشرق مثل «دوزى» (ت ١٨٨٣م) وأطلق عبارات مريضة عن القرآن تقول بأنه كتاب ذو ذوق ردىء للغاية ولا جديد فيه إلا القليل، وفيه إطناب بالغ وممل

---

(١) انظر الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج ١ ص ٧٩ وما بعدها - طبعة الحلبى ١٩٥١م. انظر أيضًا: تفسير الفخر الرازى ج١ ص ٢٢٢ وما بعدها - دار الفكر ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(٢) ص ٢٩٢ طبعة ١٩٦٣م.

(٣) انظر كتابنا: الإسلام فى مرآة الفكر الغربى ص ٥٤ وما بعدها.

إلى حد بعيد[1] - إذا قال «دوزى» ذلك فلا يأخذنا العجب أن يصدر منه ومن أمثاله مثل هذا الهراء، ولكننا فقط نتساءل:

من أين له الأهلية لإصدار مثل هذا الحكم على القرآن الكريم؟ إن العلم الذى يتحدث باسمه لا يمكن أن يعطى له مثل هذا الحق على الإطلاق. وكيف يستطيع غريب عن لغة القرآن أن يصل إلى إدراك ما ينطوى عليه القرآن الكريم من إعجاز وفصاحة وبلاغة أجبرت المشركين على الاعتراف بها، فراح مندوبهم الوليد بن المغيرة يردد بعد سماعه للقرآن «والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته».

وشتان بين موقف «دوزى» وموقف «الوليد بن المغيرة»! فالوليد بن المغيرة قال ما قال عن تذوق سليم لبلاغة القرآن، أما «دوزى» فمن أين له مثل هذا التذوق وهو مهما كانت براعته فى العربية - غريب عن هذه اللغة وأجنبى عن روحها وإن برع فى معرفة ألفاظها؟!

٢- خطورة القرآن

القرآن الكريم كتاب مقلق للغربيين، ومحير لهم، ومبلبل لأفكارهم.

يقول «بلاشير»:

«قلما وجدنا بين الكتب الدينية الشرقية كتابًا بلبل بقراءته دأبنا الفكرى أكثر مما فعله القرآن»[2].

ولكن الأمر فى الواقع ليس مجرد قلق أو حيرة أو بلبلة فكرية. وإنما الأمر أبعد من ذلك بكثير، إنه الشعور بخطورة هذا الكتاب. وقد كان للاستشراق دوره فى التحذير من خطورة القرآن على العالم الغربى، فقد تكفل بالكشف عن أخطار القرآن طائفة من المستشرقين الذين أخضعوا بحوثهم العلمية للأهواء الشخصية أو الأهداف السياسية والدينية، فأعماهم ذلك عن الحق وأضلهم عن سواء السبيل.

---

(١) انظر بحثنا: الإسلام فى الفكر الاستشراقى، ص ١١٨.
(٢) بلاشير: القرآن ص ٤١.

وعندما تدرس هذه الفئة القرآن الكريم دراسة عميقة، وتتأمل مبادئه الأساسية، وتتبين مزاياه الفريدة، وما فيه من دعوة إلى الترابط، والاعتصام بحبل الله المتين، والتعاون على البر والتقوى، والتحذير من الشر أو الظلم، والنهى عن السخرية بغيرنا أو التجسس عليه، والتحذير من الغيبة والنميمة، والحض على الصدق والأمانة، والعدل والوفاء بالعهد، والحث على طلب العلم والتخلص من الجهل - عندما يتبينون ذلك كله يحاولون طمس هذه الحقائق، وإبعاد المسلمين عنها، ويسارعون إلى أولى الأمر فى بلادهم من المستعمرين القدامى أوالجدد، ويوحون إليهم بأن هذا القرآن كتاب خطير؛ لأنه اشتمل على مبادئ تقيم الدنيا وتقعدها، وإذا تحقق فهمها وتطبيقها ساد أهله العالم كله، وتحكموا فى مصيره.

وهذا يعنى أن المسلمين إذا عرفوا كتابهم حق المعرفة، وطبقوه تطبيقًا تامًا، فلن تقوم للاستعمار القديم والجديد قائمة فى بلاد المسلمين.

ومن ثم، يتبين ذلك المجهود الذى يبذله المستعمرون فى أن يبقى القرآن مجهولاً، وأن تظل مبادئه بعيدة عن التنفيذ[1].

ومن هنا نعرف سبب هلع الغرب وفزعه الذى لا حد له عندما يشعر بوجود تيار إسلامى فى أى مكان فى العالم الإسلامى، أو ما يعرف الآن بالصحوة الإسلامية، التى تعنى - لو أحسن ترشيدها - عودة إلى هذا القرآن الخطير، الذى يزرع العزة فى قلوب أبنائه، ويرفض أن يكونوا أذلاء لأعدائهم. وهذا يعنى أيضًا انطلاق المارد الإسلامى من سجنه ليثبت وجوده مرة أخرى، ويشارك بفاعلية فى تقرير مصير العالم، الأمر الذى يرى فيه الغرب تهديدًا لمصالحه فى الشرق الإسلامى.

وتقوم وسائل الإعلام فى الشرق والغرب بتصوير المسلمين بالتطرف والتشدد والجمود والرجعية والتعصب والإرهاب وكل ما فى القاموس من ألفاظ من هذا القبيل. ويعمل الغرب والشرق مجتمعين على ألا تقوم للإسلام قائمة مرة أخرى، وهذا هدف لا خلاف عليه بين كلا المعسكرين، ولكن المسلمين لا يدركون هذه الحقيقة إدراكًا تامًا.

---

(١) د. محمد غلاب: نظرات استشراقية فى الإسلام ص ٣٢، ٣٣.

وتتجه الجهود إلى تحويل أنظار المسلمين إلى أن طريق الخلاص هو فى اتباع سبيل الغرب، ولهذا تنطلق الدعوة من جانب بعض المستشرقين إلى إصلاح الإسلام. فالإسلام فى زعمهم دين جامد لم يعد مسايراً لروح العصر. ومن أجل ذلك فهو فى حاجة إلى إصلاح جذرى. وفى ذلك يقول «ك. كراج - K. Cragg» رئيس تحرير مجلة العالم الإسلامى:

«إن على الإسلام إمَّا أن يعتمد تغييراً جذريًا فيه أو أن يتخلى عن مسايرة الحياة»(1) .

وهذه دعوة يوجهها إلى المسلمين غريب عنهم بشأن ما ينبغى عليهم أن يفعلوه فى دينهم، وهذا الإصلاح المزعوم يمثل محاولة تغيير وجهة نظر المسلم عن الإسلام، وجعل الإسلام أقرب إلى المسيحية الغربية بقدر الإمكان.

ولعله من نافلة القول أن نشير إلى أن الإسلام يشتمل على أصول لا يملك أحد أن يغير فيها شيئًا، وهى عقائد الإسلام الأساسية، ويشتمل على فروع وهى قابلة للتغيير حسب المصلحة الإسلامية، وأن الإصلاح الذى نفهمه - نحن المسلمين - هو إصلاح للفكر الإسلامى الذى هو فى حاجة إلى المراجعة المستمرة حتى يتلاءم مع متطلبات العصر وحاجات الأمة فى إطار التعاليم الإسلامية. ويعبر الداعية الإسلامى الكبير الشيخ محمد الغزالى - رحمه الله - عن ذلك بأنه «مراجعة لا رجوع».

ولكن الدعوة إلى إصلاح الإسلام أو تحديثه - كما يقال أحيانًا - ليست بهذا المفهوم، وإنما هى عبارة عن تفريغ الإسلام من مضمونه وعزله كلية عن تنظيم أمور المجتمع، وجعله مجرد تعاليم خلقية، شأنه فى ذلك شأن المسيحية الغربية.

ويتورط بعض من أبناء المسلمين فى حمل لواء الدعوة إلى إصلاح الإسلام كما يفهمه المستشرقون. ومن أحدث الكتب فى هذا الشأن كتاب صدر فى ألمانيا الغربية (عام ١٩٨١م) بعنوان: «أزمة الإسلام الحديث» لمؤلف عربى مسلم - يعمل فى إحدى جامعات ألمانيا - يدعو فيه بحماس إلى الأخذ بالأنموذج الغربى فى الإصلاح المتمثل فى جعل الدين مجرد تعاليم خلقية لا تكاليف إلزامية، فذلك فى نظره هو الحل الوحيد لأزمة الإسلام. وبذلك يتم إبعاد الدين كلية عن التدخل فى شئون الحياة حسب الأنموذج الغربى.

---

(١) نقلاً عن طيباوى: انظر: الفكر الإسلامى الحديث للدكتور البهى ص ٦١٢، وانظر أيضًا ص ٦٠٨، ٥٥٦.

وهكذا نوفر - نحن أبناء المسلمين - على المستشرقين والمبشرين بذل الجهد فى هذا السبيل، ونتولى نحن الدعوة إلى تحقيق الأهداف التى عاشوا قرونًا طويلة يعملون من أجلها دون جدوى.

وقد وصل الأمر فى بعض البلاد الإسلامية إلى معاملة الفكر الإسلامى معاملة الفكر الماركسى من حيث كونهما خطرًا تجب مكافحته وتعقب الداعين إليه.

وقد قام الاستعمار بالتخطيط المدروس لإضعاف العالم الإسلامى وإبعاده عن مقوماته الإسلامية، ومنع أية محاولة لجمع شمل المسلمين مرة أخرى، ووجد الاستعمار من بين أبناء العالم الإسلامى أناسًا ارتضوا لأنفهسم أن يكونوا أدوات لتحقيق أهدافه. ونحن لا نلقى هنا القول على عواهنه، وإنما هذا ما تنطق به الوثائق السرية الاستعمارية نفسها. فقد جاء فى تقرير وزير المستعمرات البريطانى (أورمسبى غو) لرئيس حكومته بتاريخ ٩ يناير (كانون الثانى) ١٩٣٨م ما يأتى:

«إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هى الخطر الأعظم الذى ينبغى على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه، وليس الإمبراطورية وحدها، بل فرنسا أيضًا، ولفرحتنا فقد ذهبت الخلافة، وأتمنى أن تكون إلى غير رجعة.

إن سياستنا الموالية للعرب فى الحرب العظمى (يعنى الأولى) لم تكن مجرد نتائج لمتطلبات (تكتيكية) ضد القوات التركية، بل كانت مخططة أيضًا لفصل السيطرة على المدينتين المقدستين مكة والمدينة عن الخلافة العثمانية التى كانت قائمة آنذاك.

ولسعادتنا فإن كمال أتاتورك لم يضع تركيا فى مسار قومى علمانى فقط، بل أدخل إصلاحات بعيدة الأثر، أدت بالفعل إلى نقض معالم تركيا الإسلامية»[1] .

---

(١) الوثيقة محفوظة بالمركز العام للوثائق بلندن تحت رقم ٣٧١/ ٥٥٩٥ (انظر: جريدة العلم المغربية بتاريخ ٧/ ٤/ ١٩٨٠م نقلاً عن مجلة «درع الوطن» العسكرية لدولة الإمارات العربية المتحدة).

السنة النبوية

السنة النبوية هي الأصل الثاني للإسلام. وقد أمر الله ـ سبحانه ـ نبيه ﷺ أن يبلغ رسالته إلى الناس في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ...﴾ [المائدة: ٦٧] ولكن الأمر لم يكن مجرد تبليغ آلي، وإنما هو تبليغ مصحوب بالتبيين، كما ورد في قوله تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ...﴾ [النحل: ٤٤]. وفي قوله تعالى:

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ...﴾ [النحل: ٦٤].

وقد فعل الرسول ﷺ ما أمره الله به، فكانت سنته المتمثلة في أقواله وأفعاله وتقريراته بالنسبة للقرآن بمثابة «تفصيل مجمله وبيان مشكله وبسط مختصره»[١]. وبذلك يكون الارتباط بين القرآن والسنة ارتباطًا لا يتصور أن ينفصم في يوم من الأيام. وقد نبه النبي ﷺ على ذلك حين قال: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي»[٢].

ومن أجل ذلك اهتم المسلمون اهتمامًا عظيمًا بالسنة بوصفها الأصل الثاني للإسلام. وقد كان هذا الفهم يعد من الأمور البديهية لدى صحابة رسول الله ﷺ.. فعندما بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل واليًا إلى اليمن سأله: «كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟» قال: أقضي بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد؟» قال: بسنة رسول الله، قال: «فإن لم تجد؟» قال: أجتهد رأيي[٣].

---

(١) راجع الموافقات للشاطبي ج٤ ص١٢.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة.

(٣) راجع جامع بيان العلم وفضله لأبي عمرو يوسف بن عبد البر ج ٢ ص ٦٩ (المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ١٣٨٨هـ).

وقد أراد المستشرقون ـ بعد محاولاتهم الفاشلة للتشكيك فى القرآن الكريم من جوانب مختلفة، وبعد أن أعياهم البحث ولم يكن لهذه المحاولات أى أثر إيجابى لدى المسلمين المتمسكين بقرآنهم، وتبين أن هذه المحاولات لم تكن إلا كما قال الشاعر العربى:

كناطح صخرة يومًا ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

ـ أراد المستشرقون أن يوجهوا محاولات التشكيك إلى ناحية أخرى، أى إلى الأصل الثانى للإسلام وهو السنة، مع الاستمرار فى محاولاتهم السابقة الفاشلة. وأول مستشرق قام بمحاولة واسعة شاملة للتشكيك فى الحديث النبوى كان المستشرق اليهودى «جولد تسيهر» الذى يعده المستشرقون أعمق العارفين بالحديث النبوى.

ويقول عنه كاتب مادة (الحديث) فى دائرة المعارف الإسلامية:

«إن العلم مدين دينًا كبيرًا لما كتبه «جولد تسيهر» فى موضوع الحديث، وقد كان تأثير «جولد تسيهر» على مسار الدراسات الإسلامية الاستشراقية أعظم مما كان لأى من معاصريه من المستشرقين، فقد حدد تحديدًا حاسمًا اتجاه وتطور البحث فى هذه الدراسات»[1].

ويلخص «بفانموللر» عمل «جولد تسيهر» فى هذا المجال فيقول: **«لقد كان جولد تسيهر أعمق العارفين بعلم الحديث النبوى. وقد تناول فى القسم الثانى من كتابه (دراسات محمدية) موضوع تطور الحديث تناولاً عميقًا. وراح ـ بما له من علم عميق، واطلاع يفوق كل وصف ـ يبحث التطور الداخلى والخارجى للحديث من كل النواحى. وقد قادته المعايشة العميقة لمادة الحديث الهائلة إلى الشك فى الحديث، ولم يعد يثق فيه مثلما كان (دوزى) لا يزال يفعل ذلك فى كتابه (مقال فى تاريخ الإسلام). وبالأحرى كان «جولد تسيهر» يعتبر القسم الأعظم من الحديث بمثابة نتيجة لتطور الإسلام الدينى والتاريخى والاجتماعى فى القرن الأول والثانى. فالحديث بالنسبة له لا يعد وثيقة لتاريخ الإسلام فى عهده الأول: عهد طفولته، وإنما هو أثر من آثار الجهود التى ظهرت فى المجتمع الإسلامى فى عصور المراحل الناضجة لتطور الإسلام. ويقدم «جولد تسيهر» مادة هائلة من الشواهد لمسار التطور الذى قطعه الإسلام فى تلك**

Fueck, op.cit.p.231. (١)

العصور التى تم فيها تشكيله من بين القوى المتناقضة، والتباينات الهائلة حتى أصبح فى صورته النسقية. . ويصور «جولد تسيهر» التطور التدريجى للحديث، ويبرهن بأمثلة كثيرة وقاطعة كيف كان الحديث انعكاسًا لروح العصر، وكيف عملت على ذلك الأجيال المختلفة، وكيف راحت كل الأحزاب والاتجاهات فى الإسلام تبحث لنفسها من خلال ذلك عن إثبات لشرعيتها بالاستناد إلى مؤسس الإسلام، وأجرت على لسانه الأقوال التى تعبر عن شعاراتها»[١] .

وهكذا تم اختراع كم هائل من الأحاديث فى العصر الأموى عندما اشتدت الخصومة بين الأمويين والعلماء الصالحين، ففى سبيل محاربة الطغيان والخروج عن الدين راح العلماء يخترعون الأحاديث التى تسعفهم فى هذا الصدد، وفى الوقت نفسه راحت الحكومة الأموية تعمل فى الاتجاه المضاد، وتضع أو تدعو إلى وضع أحاديث تسند وجهات نظرها. وقد استطاعت أن تجند بعض العلماء الذين ساعدوها فى هذا المجال. . . ولكن الأمر لم يقف عند حد وضع أحاديث تخدم أغراضًا سياسية، بل تعداه إلى النواحى الدينية فى أمور العبادات التى لا تتفق مع ما يراه أهل المدينة. وقد استمر هذا الحال فى وضع الأحاديث فى القرن الثانى أيضًا[٢] .

هذا هو ملخص المزاعم التى روجها «جولد تسيهر» ليهدم بها الأصل الثانى للإسلام وهو السنة. ولسنا هنا فى معرض الرد التفصيلى على هذه المزاعم، فقد تكفل بعض أفاضل العلماء بذلك. ومن أهم الكتب القيمة فى هذا المجال كتاب «السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى» للدكتور السباعى. فمن أراد التفصيل فليرجع إليه.

ولكننا هنا نود أن نشير إلى أننا لا ننكر أن هناك الكثير من الأحاديث المنسوبة إلى النبى ﷺ مع أنه لا أصل لها، وأن ذلك لم يكن فى يوم من الأيام خافيًا على علماء المسلمين فى مختلف العصور. ولكن الأمر الذى لا شك فيه أيضًا أن علماء المسلمين الذين اهتموا بجمع الحديث النبوى لم يفرطوا إطلاقًا فى ضرورة التدقيق الذى لا حد له فى رواية الحقائق. فقد وضع القرآن أمامهم أهم قاعدة من قواعد النقد التاريخى فى قوله تعالى :

---

(١) Pfannmueller, op, cit, p.233/34.

(٢) د. مصطفى السباعى : السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى، ص ١٩٠/ ١٩١ بيروت ١٩٧٨م.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات : ٦].

وتتمثل هذه القاعدة فى أن أخلاق الراوى تعد عاملاً هامًا فى الحكم على روايته.
وقد أفاد المسلمون إفادة عظيمة من هذه القاعدة وطبقوها على رواة الأحاديث النبوية.
وقد كان تطبيق هذا المنهج النقدى على رواة الأحاديث هو الذى تطورت عنه بالتدريج قواعد النقد التاريخى[1].

ولعلماء الحديث باع طويل فى نقد الرواة وبيان حالهم من صدق أو كذب. فقد وصلوا فى هذا الباب إلى أبعد مدى، وأبلوا فيه بلاءً حسنًا، وتتبعوا الرواة ودرسوا حياتهم وتاريخهم وسيرتهم وما خفى من أمرهم وما ظهر، ولم تأخذهم فى الله لومة لائم، ولا منعهم عن تجريح الرواة والتشهير بهم ورع ولا حرج. قيل ليحيى بن سعيد القطان:

أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءك عند الله يوم القيامة؟ فقال:

لأن يكون هؤلاء خصمى أحب إلىَّ من أن يكون خصمى رسول الله ﷺ يقول: لِمَ لم تذب الكذب عن حديثى[2].

ويروى الإمام مسلم فى مقدمة صحيحه عن ابن سيرين قوله:

«... لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم».

ويقول ابن عباس أيضًا:

«إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول: قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف». ثم أخذ التابعون فى المطالبة بالإسناد حين فشا الكذب. يقول أبو العالية:

«كنا نسمع الحديث عن الصحابة، فلا نرضى حتى نركب إليهم فنسمعه منهم».
ويقول ابن المبارك: «بيننا وبين القوم القوائم» يعنى الإسناد[3].

---

(١) د. محمد إقبال: تجديد التفكير الدينى فى الإسلام. ص ١٦٠ وما بعدها.
(٢) د. السباعى: السنة.. ص ٩٢.
(٣) راجع: صحيح مسلم بشرح النووى ج١ ص٨٠-٨٤، ٨٨. (دار إحياء التراث العربى-بيروت).

وقد وضع رجال الحديث القواعد الدقيقة التى ساروا عليها فيمن يؤخذ منه ومن لا يؤخذ، ومن يكتب عنه ومن لا يكتب. ويعلم «جولد تسيهر» وغيره من المستشرقين ذلك حق العلم، ويعلمون أيضًا أن ما بذله المسلمون فى توثيق الحديث لم يبذل أحد من أتباع المسيحية واليهودية عشر معشاره فى سبيل توثيق العهدين القديم والجديد ويعلمون أيضًا أن إمامًا من أئمة الحديث مثل البخارى لم يأخذ فى صحيحه بعد حذف المكرر إلا أقل من أربعة آلاف حديث فقط من مجموع حوالى نصف مليون حديث قام بجمعها وغربلتها حتى انتقى منها هذه الآلاف القليلة نتيجة للمناهج العلمية الدقيقة التى وضعها المحدثون. ولم يكن المسلمون فى وقت من الأوقات فى حاجة إلى من يعلمهم ذلك من أمثال «جولد تسيهر» ومن سار على نهجه.

أما دعوى أن الحديث أو القسم الأكبر منه كان نتيجة للتطور الدينى والسياسى والاجتماعى للإسلام فى القرنين الأولين، وما ذكره «جولد تسيهر» من حديث عن طفولة الإسلام ونضوجه... إلخ، فإن الواقع والتاريخ يكذب هذه المزاعم.

فقد انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى بعد أن اكتمل الدين تمامًا بنص القرآن الكريم، حيث يقول:

﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا...﴾ [المائدة: ٣].

وهذه الآية الكريمة تتضمن أيضًا إكمال السنة؛ لأن رسول الله ﷺ مبلغ ومبين لما فى الكتاب كما سبق أن أشرنا، فالحديث عن مرحلة نضوج الإسلام بعد وفاة النبى ﷺ حديث لا أساس له؛ لأن النضوج كان قد تم بالفعل قبل وفاته. أما إذا كان المراد بالنضوج هو تطور الفكر الإسلامى أو الفقه الإسلامى، فهذا أمر آخر مع الأخذ فى الاعتبار أن تطور الفقه الإسلامى لم يخرج - فى أثناء بحثه عن حلول لما جد فى المجتمع الإسلامى من مشكلات لم يكن لها نظير من قبل - عن الخطوط العامة التى وردت فى القرآن الكريم والسنة النبوية.

أما أن الحديث كان انعكاسًا للتطورات التى شهدها المجتمع الإسلامى فى القرنين الأولين، فيكذبه الحديث الشريف الذى سبق أن أوردناه:

«تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله، وسنتى».

وقد كان من نتيجة ذلك جمع المسلمين على كلمة سواء فى العقائد والعبادات والأخلاق وأحكام المعاملات فى كل بقاع الأرض. فكيف يمكن حدوث ذلك إذا لم يكن الدين قد اكتمل، والقواعد قد ترسخت، والأخلاق قد تمكنت من النفوس، والعبادات قد استقرت أوضاعها. إن القول بأن الحديث أو القسم الأكبر منه كان نتيجة للتطور الذى حدث فى المجتمع الإسلامى فى القرن الأول والثانى يترتب عليه ألا تتحد عبادة المسلم فى شمال إفريقيا مع عبادة المسلم فى جنوب الصين، نظراً للاختلاف البعيد فى البيئة فى كلٍّ منهما. فكيف اتحدا فى العبادة والتشريع والآداب وبينهما هذا البعد وهذا الاختلاف؟![1].

أما اختلاف المذاهب وتعددها بعد القرن الأول، فقد كان نتيجة لاختلاف أفهام المسلمين فى فهم الكتاب والسنة. وهو اختلاف فى الاجتهادات فى الفروع لا فى الأصول، وقد أباح الإسلام مثل هذا الاختلاف فى الفهم الناتج عن اجتهاد صادق، فإذا كان اجتهاداً خاطئًا فلصاحبه مع ذلك أجر واحد، وإن كان اجتهاداً صائبًا فلصاحبه أجران. ومن هنا نجد المرونة التى تتلاءم مع كل عصر وكل مكان.

وهكذا لم يصل المستشرقون إلى ما يريدون من زعزعة اعتقادات المسلمين وخلخلة تمسكهم بإيمانهم وسنة نبيهم، وقد ردد بعض من المسلمين بعض الأفكار الاستشراقية[2]، ولكنها لم تجد أيضًا آذانًا صاغية من المسلمين.

* * *

---

(١) د. السباعى: السنة.. ص ١٩٦.

(٢) مثل: محمود أبو رية فى كتابه (أضواء على السنة المحمدية).

الشريعة الإسلامية والقانون الرومانى

الأمثلة التى ذكرناها من آراء ومواقف بعض المستشرقين من القرآن الكريم والسنة النبوية تكفى شاهدًا ودليلاً على محاولاتهم المستميتة فى سبيل هدم هذين الأصلين الكبيرين اللذين يقوم عليهما الإسلام، فالاعتقاد بهما إذا تطرق إليه التخلخل فإن ذلك سيؤدى إلى تخلخل الاعتقاد فى الإسلام من أساسه. ولكن المستشرقين لم يقفوا عند هذا الحد، فدائرة عملهم أوسع من التشكيك فى القرآن والسنة، فهم حريصون على تجريد المسلمين والعقلية الإسلامية والفكر الإسلامى بصفة عامة من كل القيم الإنسانية والحضارية و الابتكارات العلمية. ولن نستطيع بطبيعة الحال أن نعرض فى هذا الكتاب الموجز لكل المزاعم الاستشراقية فى هذاالصدد، ولكننا نكتفى بأن نشير باختصار شديد إلى أنموذجين يوضحان محاولات المستشرقين فى التشكيك فى أصالة كلٍّ من الشريعة الإسلامية والفلسفة الإسلامية.

أما ما يتعلق بالشريعة الإسلامية، فإن معظم المستشرقين يميلون إلى القول بتأثر الشريعة الإسلامية بالقانون الرومانى، على اختلاف فيما بينهم فى درجات هذا التأثر. فمنهم فريق من أمثال «جولد تسيهر» و«فون كريمر» و«شيلدون آموس» يذهبون إلى القول بأن الشريعة الإسلامية مستمدة من القانون الرومانى، فهذا القانون هو المصدر الذى أقام فقهاء المسلمين على أساس من قواعده الكيان القانونى للشريعة الإسلامية. وفى ذلك يقول «شيلدون آموس» بصريح العبارة:

«إن الشرع المحمدى ليس إلا القانون الرومانى للإمبراطورية الشرقية معدلاً وفق الأحوال السياسية فى الممتلكات العربية».

ويقول أيضًا:

«إن القانون المحمدى ليس سوى قانون جستنيان فى لباس عربى».

ويستدل هؤلاء على دعواهم بأدلة مختلفة، أهمها أن النبي ﷺ كان على معرفة واسعة بالقانون الروماني، كما أن فقهاء المسلمين قد تعرفوا على آراء فقهاء مدارس القانون الروماني وأحكام المحاكم الرومانية في البلاد التي كانت لا تزال فيها هذه المدارس والمحاكم قائمة بعد الفتح الإسلامي.

وهناك بالإضافة إلى ذلك تشابه في النظم القانونية والأحكام والقواعد الموجودة في الشريعة والقانون الروماني، الأمر الذي يعني أن الشريعة الإسلامية اقتبست هذه النظم والأحكام من القانون الروماني باعتباره سابقًا عليها[1].

وهذه الأدلة باطلة ويسهل كشف زيفها وبطلانها، ولا تستطيع أن تثبت أمام النقد العلمي الجاد. فالنبي كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ولم يكن لخروجه إلى الشام في المرتين اللتين سافر فيهما أي أثر في إمكان اطلاعه على القانون الروماني. فقد كانت رحلته الأولى مع عمه أبي طالب وهو ابن تسع سنين أو اثنتي عشرة سنة، وأما رحلته الثانية فقد كانت سنه حينذاك خمسًا وعشرين سنة، ولم يرافقه فيها إلا عرب خلَّص، ولم يختلط بأحد من علماء القانون الروماني، فضلاً عن أنه لم يكن هناك أي سبب يدعو الحكام الرومان أو أحد علمائهم لتعليم محمد قواعد القانون الروماني. أما تعرف علماء المسلمين على القانون الروماني من المدارس والمحاكم الرومانية فإنه زعم باطل، لأن هذه المدارس كانت قد ألغيت بقرار إمبراطوري في ١٦ ديسمبر (كانون الأول) ٥٣٣م، وما بقي من هذه المدارس في روما والقسطنطينية لم يكن له تأثير على المسلمين. أما مدرسة بيروت، فقد اندثرت قبل الفتح الإسلامي بثلاثة أرباع القرن. وما أثير حول تأثر الإمام الأوزاعي بالقانون الروماني لا أساس له؛ لأن الأوزاعي كان من فقهاء مدرسة الحديث التي كانت أبعد المدارس عن التأثر بمؤثرات أجنبية. وقد قضى الفتح الإسلامي على أي سلطة أجنبية للقضاء في الدولة الإسلامية.

أما القول بالتشابه المزعوم بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني فإن التشابه لا يعني بالضرورة التأثر، فقد يكون ناشئًا من تشابه الظروف الاجتماعية، كما أن العقول

---

(١) يذكر نجيب العقيقي في كتابه (المستشرقون) ١/ ٧٢ مسألة تأثر الفقه الإسلامي بالقانون الروماني كما لو كانت حقيقة ثابتة مفروغًا منها، فهو حين يتحدث عن تأثر المسلمين بما كان لدى نصارى دمشق من تفكير فلسفي ولاهوتي وقانوني نجده يقول: «وتأثر الفقه بالقانونين اليوناني والروماني، وكان القديس يوحنا الدمشقي... خير معبر لنقل تلك الأفكار إلى العربية».

تتشابه فى كثير من أنواع التفكير . ومع ذلك ، فإنه على الرغم من هذا التشابه الظاهرى فى بعض النظم والقواعد فإن هناك اختلافات كثيرة وأساسية بينهما مما يدل على استقلال كلٍّ منهما عن الآخر . فضلاً عن اختلافهما فى مصادر الأحكام ، فالخلاف جوهرى بينهما ، إذ تقوم الشريعة الإسلامية على أساس الوحى الإلهى ، بينما يعتمد القانون الرومانى على العقل البشرى ، ولذلك فإن الصلة بينهما منقطعة - كما يقول العالم الفرنسى «زيس - Zeys» فكيف يتصور التوفيق بين نظامين قانونيين وصلا إلى هذه الدرجة من الاختلاف؟[1] .

وفى هذا الصدد يقول الدكتور السنهورى رحمه الله :

«إن هذا القانون (الرومانى) بدأ عادات . . ونما وازدهر عن طريق الدعوى والإجراءات الشكلية . أما الشريعة الإسلامية ، فقد بدأت كتابًا منزلاً من عند الله ، ونمت وازدهرت عن طريق القياس المنطقى والأحكام الموضوعية . . إلا أن فقهاء المسلمين امتازوا عن فقهاء الرومان ، بل امتازوا عن فقهاء العالم باستخلاصهم أصولاً ومبادئ عامة من نوع آخر هى أصول استنباط الأحكام من مصادرها ، وهذا ما سموه بعلم أصول الفقه»[2] .

---

(١) انظر : المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية للدكتور عبدالكريم زيدان ص ٧٣ - ٨٩ مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨١م .

(٢) أصول القانون للدكتور السنهورى ص ١٣٢ (نقلاً عن المرجع السابق ص ٨٨) .

الفلسفة الإسلامية

يميل نفر من المستشرقين إلى تجريد العقلية الإسلامية من كل لون من ألوان الإبداع الفكرى، وينكرون على فلاسفة الإسلام الجدة والأصالة فى تفكيرهم، ويعتبرونهم مجرد نقلة للتراث اليونانى الفلسفى. وتقوم هذه الدعوى على أساس عنصرى يقسم الشعوب إلى ساميين وآريين. فالعرب - وهم الجنس السامى - لا قدرة لهم على التفكير الفلسفى وتناول الأمور المجردة. أما الشعوب الآرية - ومنهم اليونانيون القدماء - فهم وحدهم أصحاب المقدرة على ذلك[1].

ويصرح «رينان» فى كتابه «تاريخ اللغات السامية» بأنه أول من قرر هذا الرأى الذى يذهب إلى جعل الجنس السامى دون الجنس الآرى. وبناء عليه، فإن ما لدى العرب من فلسفة ليس إلا اقتباسًا صرفًا جديبًا وتقليداً للفلسفة اليونانية. وبمعنى آخر: إن الفلسفة العربية هى الفلسفة اليونانية مكتوبة بحروف عربية[2].

وذهب «كارل هيزيش بيكر» إلى أنه بينما تخضع الروح الإسلامية للطبيعة الخارجية فتفنى الذوات الفردية فى كل لا تمييز فيه، فلا تتصور الأفكار إلا على الإجماع - نجد أن الروح اليونانية تمتاز بالفردية واحترام الذاتية، وهما محل النظر الفلسفى. ولهذا فقد كان اليونان أقدر على التفلسف من المسلمين[3].

وقد تابع «جوتييه» وغيره «رينان» فى دعواه العنصرية. وقال جوتييه:

«هذه هى عقلية الدين الإسلامى وروحه، فى حقيقتها ودقائقها وما ظهر منها وما بطن؟ هو دين سام بحت: مفرق وموحد بأضيق المعانى، وغير عقلى، ولا يتفق

---

(١) د. محمد أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام ص ٩، ١٠ الإسكندرية ١٩٨٣م.

(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفى عبدالرازق ص ١٠، ١١، القاهرة ١٩٦٦م.

(٣) د. أبو ريان: المرجع السابق ص ١٠.

والتفكير الحر، وقليل الميل إلى التصوف ولو فى عهده الأول على الأقل، ومن ثم فى روحه الحقة»[1].

وزعم رينان أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر، بل هو عائق لها، ويذهب «تنمان» أيضًا إلى أن كتاب المسلمين المقدس يعوق النظر العقلى الحر[2].

ولا يعنينا هنا أن نناقش النظرية العنصرية التى تقسم الشعوب إلى ساميين وآريين، فقد كادت تتلاشى لعدم استنادها على أساس علمى سليم[3]، وإن كانت قد تركت آثارها فى العقلية الأوروبية، ولكن الذى يهمنا هنا هو ما رأيناه من إقحام الإسلام فى تلك المزاعم، ووصفه بأنه دين يعوق النظر العقلى ولا يتفق والتفكير الحر، وأنه يقف عقبة فى سبيل العلم والفلسفة والبحث الحر، فالأمر ليس تجريد العقلية العربية من الأصالة والابتكار فحسب، وإنما هو أيضًا تفريغ الإسلام من كل قيمة إيجابية، وجعله أداة جامدة تقف فى سبيل التقدم الإنسانى، وتعوق سيره فى هذه الحياة، ولست أدرى كيف يستبيح المستشرقون لأنفسهم إطلاق هذه المزاعم، والعالم كله لم يعرف دينًا من الأديان يعلى من شأن العقل مثل الإسلام، والقرآن الكريم شاهد على ذلك؟

فقد كرم الله الإنسان وفضَّله على كثير من خلقه. ولم يبلغ الإنسان كل هذا التكريم الذى سما به فوق كل الكائنات إلا بالعقل الذى اختصه الله به وميزه به على سائر خلقه. وقد نوه الإسلام بالعقل والتعويل عليه فى أمور العقيدة والمسئولية والتكليف، ولا تأتى الإشارة إلى العقل فى القرآن الكريم إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه. وإذا كانت وظيفة العقل على هذا النحو، فإن محاولة تعطيله عن أداء هذه الوظيفة تعد تعطيلاً للحكمة التى أرادها الله من خلق العقل، مثلما يعطل الإنسان حاسة من الحواس التى أنعم الله بها على الإنسان عن أداء وظيفتها التى خلقت من أجلها. وهؤلاء يصفهم القرآن بأنهم أحط درجة من الحيوان، حيث يقول: **﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ...﴾** [الأعراف: ١٧٩].

---

(١) جوتييه: المدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية، ترجمة د. محمد يوسف موسى ص ١٧٦، القاهرة، ١٩٤٥م.

(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٥، وزعماء الإصلاح لأحمد أمين ص ٩٢.

(٣) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٢.

ومن هذا المنطلق يعتبر الإسلام عدم استخدام العقل خطيئة من الخطايا وذنبًا من الذنوب. يقول القرآن حكاية عن الكفار يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⑩ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ...﴾[الملك: ١٠، ١١].

ولهذا كانت دعوة القرآن الكريم للإنسان لاستخدام ملكاته الفكرية دعوة صريحة لا تقبل التأويل، وسيحاسب الإنسان على مدى حسن أو إساءة استخدامه لها، مثلما يسأل عن استخدامه لباقي وسائل الإدراك الحسية. وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقد حطم الإسلام العوائق التي تقف في سبيل تأدية العقل لوظيفته، فرفض الإسلام التبعية الفكرية والتقليد الأعمى، وعاب على المشركين تقليدهم الأعمى لأعرافهم وتقاليدهم متجاهلين في ذلك حكم العقل، كما حذر النبي ﷺ من مثل هذا التقليد الأعمى الذي لا يليق بكرامة الإنسان فقال: (لا يكونن أحدكم إمَّعة) [رواه الترمذي].

كما قضى الإسلام على الدجل والشعوذة والاعتقاد في الخرافات والأوهام، وأبطل الكهانة، وركز على المسئولية الفردية، وجعل الأمن على العقل من بين المقاصد الضرورية الأساسية التي قصدت إليها الشريعة الإسلامية لقيام مصالح الدين والدنيا، وهذه المقاصد هي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال. وحرر الإسلام الفرد المؤمن بعقيدة التوحيد من الخوف المهين من السلطة الدنيوية، ورفعه إلى مقام العزة. وهكذا كفل الإسلام للعقل المناخ الحقيقي الذي يستطيع فيه أن يفكر ويتأمل ويعي ويفهم. وبهذا تم للإنسان استقلال الإرادة واستقلال الرأي والفكر. وقد كان لهذا الموقف الأساسي للإسلام من العقل أثره العظيم في صياغة الحضارة الإسلامية والعقلية الإسلامية.

فقد وعى الإنسان المسلم أن الله قد خلق له هذا الكون بما فيه ليمارس فيه نشاطاته المادية والروحية على السواء. ويشير القرآن الكريم إلى ذلك في آيات عديدة منها قوله تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

فهل هناك دعوة إلى البحث أو التفكير والتأمل أصرح من ذلك؟

إن التفكير الذى تنص عليه هذه الآية أمر جوهرى مقصود. فإذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون بما فيه، فلا يجوز له أن يقف منه موقف اللامبالاة، بل ينبغى عليه أن يتخذ لنفسه منه موقفًا إيجابيًا، وإيجابيته تتمثل فى درسه والنظر فيه للاستفادة منه بما يعود على البشرية بالخير. والاستفادة من كل هذه المسخرات فى هذا الكون لا تكون إلا بالعلم والدراسة والفهم. والنظر فى ملكوت السموات والأرض على هذا النحو سيؤدى إلى الرقى المادى. وفى الوقت نفسه إلى الرقى الروحى... يقول القرآن الكريم: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وبعد هذا التوضيح، نقول لمن يمارون فى ذلك كله ويشككون فى ما قاله القرآن الكريم: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

ملاحظات على آراء المستشرقين

من خلال هذا العرض السابق لبعض الأمثلة من آراء بعض المستشرقين «العلمية» عن الإسلام ونبيه ﷺ وتعاليمه، ومن واقع ما لهم من آراء أخرى تسير فى الاتجاه نفسه، نستطيع أن نستخلص الأمور التالية:

(١) الاستشراق - من بين شتى العلوم الأخرى - لم يطور كثيرًا فى أساليبه ومناهجه. وفى دراسته للإسلام لم يستطع أن يحرر نفسه تمامًا من الخلفية الدينية للجدل اللاهوتى العقيم الذى انبثق منه الاستشراق أساسًا. ولم يتغير شىء من هذا الوضع حتى اليوم باستثناء بعض الشواذ. «ومن الواضح فى هذا الصدد أن صورة العصور الوسطى للإسلام قد ظلت فى جوهرها دون تغيير، وإنما نضت عنها الثياب القديمة لأجل أن تضع ثيابًا أقرب إلى العصر. وتتعدد علائم الإصرار على الأفكار العتيقة، سواء فيما يتعلق بالقرآن ومحمد، أو ما يتعلق منطقيًا بالعقيدة والشريعة والتاريخ فى الإسلام»[1].

وتخدم اليوم وسائل الإعلام المتعددة فى الغرب فى تأكيد وتقوية هذا الوضع التقليدى الذى لا يزال ينظر إلى الإسلام إلى حد كبير بمنظار القرون الوسطى، وترسخ

---

(١) طيباوى (راجع الفكر الإسلامى الحديث للدكتور البهى ص ٥٩٨).

فى أذهان الناس فى الغرب كل المفاهيم الخاطئة عن الإسلام، وتجعل منه ـ ظلمًا وافتراء ـ دينًا عدوانيًا إرهابيًا دمويًا لا يعرف للإنسان حقوقًا، ويمثل خطراً داهمًا على الحضارة الغربية. وهذا كله يحدث على الرغم من أن مجلس الڤاتيكان قد أشاد فى شهر أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦٥م بالحقائق التى جاء بها الإسلام، والتى تتعلق بالله وقدرته ويسوع ومريم والأنبياء والمرسلين، وعلى الرغم أيضًا من قول المستشرق الألمانى «بارت» من أن الدراسات الاستشراقية منذ منتصف القرن التاسع عشر تنحو نحو البحث عن الحقيقة الخالصة ولا تسعى إلى نوايا جانبية غير صافية[١].

والغريب أن الهيئات العالمية مثل اليونسكو ـ وهى هيئة دولية تشترك فيها الدول الإسلامية ـ استكتبت المستشرقين، بوصفهم متخصصين فى الإسلاميات، للكتابة عن الإسلام والمسلمين فى الموسوعة الشاملة التى تصدرها اليونسكو، عن «تاريخ الجنس البشرى وتطوره الثقافى والعلمى» ويقول الدكتور عبد الجليل شلبى ـ رحمه الله ـ فى هذا الصدد:

«وقد أثارت كتاباتهم حفيظة المسلمين على مؤسسة اليونسكو، والمهم ما فيها من مجافاة للحقائق التاريخية وتهجم على نبى الإسلام، وكتب الكثيرون احتجاجات على هذه الإساءات التى ليست إلا وحيًا لتقاليد موروثة، وامتداداً للروح الصليبى، وهو عمل كان ينبغى أن تتنزه عنه هذه المؤسسة الكبيرة»[٢].

(٢) يخلط الاستشراق كثيراً بين الإسلام كدين وتعاليم ثابتة فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة وبين الوضع المتردى للعالم الإسلامى فى عالم اليوم. فإسلام الكتاب والسنة يعد فى نظر مستشرق معاصر مثل «كيسلنج» إسلامًا ميتًا. أما الإسلام الحى الذى يجب الاهتمام به ودراسته فهو ذلك الإسلام المنتشر بين فرق الدراويش فى مختلف الأقطار الإسلامية[٣]، وهو تلك الممارسات السائدة فى حياة المسلمين اليوم بصرف النظر عن اقترابها أو ابتعادها من الإسلام الأول.

(٣) يؤكد الاستشراق بوضوح ظاهر على أهمية الفرق المنشقة عن الإسلام كالبابية، والبهائية، والقاديانيةوالبكداشية وغيرها من فرق قديمة وحديثة، ويعمل على تعميق

(١) انظر كتابنا: الإسلام فى مرآة الفكر الغربى ص ٦٩، تراث الإسلام ١/ ٩٥، بارت ١٠.

(٢) الإسلام والمستشرقون للدكتور عبدالجليل شلبى ص ٣/ ٤ ـ القاهرة ١٩٧٧م.

(٣) كان يردد هذا الكلام فى محاضراته فى جامعة ميونيخ فى الستينيات من القرن الماضى قبل إحالته إلى التقاعد.

الخلاف بين السنة والشيعة. والمستشرقون يعدون المنشقين عن الإسلام على الدوام أصحاب فكر ثورى تحررى عقلى، ودائمًا يهتمون بكل غريب وشاذ، ودائمًا يقيسون ما يرونه فى العالم الإسلامى على ما لديهم من قوالب مصبوبة جامدة. وقد أشار المستشرق «رودنسون» إلى شىء من ذلك حين قال:

«ولم ير المستشرقون فى الشرق إلا ما كانوا يريدون رؤيته، فاهتموا كثيرًا بالأشياء الصغيرة والغريبة، ولم يكونوا يريدون أن يتطور الشرق ليبلغ المرحلة التى بلغتها أوروبا، ومن ثم كانوا يكرهون النهضة فيه»(١).

(٤) يفتقد المرء الموضوعية فى كتابات معظم المستشرقين عن الدين الإسلامى، فى حين أنهم عندما يكتبون عن ديانات وضعية مثل البوذية والهندوكية وغيرهما يكونون موضوعيين فى عرضهم لهذه الأديان. فالإسلام فقط من بين كل الديانات التى ظهرت فى الشرق والغرب هو الذى يُهاجم. والمسلمون فقط من بين الشرقيين جميعًا هم الذين يوصفون بشتى الأوصاف الدنيئة. ويتساءل المرء: لماذا؟

ولعل تفسير ذلك يعود إلى أن الإسلام كان يمثل بالنسبة لأوروبا صدمة مستمرة. فقد كان الخوف من الإسلام هو القاعدة. وحتى نهاية القرن السابع عشر كان «الخطر العثمانى» رابضًا عند حدود أوروبا ويمثل ـ فى اعتقادهم ـ تهديداً مستمراً بالنسبة للحضارة المسيحية الغربية كلها. ومن هنا يمكن فهم ما يزعمه (موير ـ Muir) حين يقول:

«إن سيف محمد والقرآن هما أكثر الأعداء الذين عرفهم العالم حتى الآن عنادًا ضد الحضارة والحرية والحقيقة».

وما يدَّعيه «فون جرونيباوم» من أن الإسلام ظاهرة فريدة لا مثيل لها فى أى دين آخر أو حضارة أخرى. فهو دين غير إنسانى وغير قادر على التطور والمعرفة الموضوعية. وهو دين غير خلاق وغير علمى واستبدادى(٢).

---

(١) من محاضرة ألقاها فى القاهرة بعنوان: (رؤية أوروبا للعالم الإسلامى) ونشرتها صحيفة الأهرام فى ٢٩/ ١٢/ ١٩٦٩م. وله عبارة مشابهة فى بحثه المنشور فى كتاب (تراث الإسلام) ١/ ٨٠ حيث يقول: «وحين كان الغربيون يذهبون إلى الشرق، كانت تلك (أى الصورة المشوهة للشرق) هى الصورة التى يبحثون عنها. فينتقون ما يرونه بعناية ويتجاهلون كل ما لا ينسجم مع الصورة التى كونوها سابقًا».

(٢) راجع: إدوارد سعيد ص ٨٩، ١٦٨، ٢٩٦.

وهكذا يتضح الحقد الدفين على الإسلام باستمرار بمثل هذه الافتراءات التى ليس لها فى سوق العلم نصيب .

(٥) يعطى الاستشراق لنفسه فى دراسته للإسلام دور ممثل الاتهام والقاضى فى الوقت نفسه . فبينما نجد مثلاً أن علم التاريخ يحاول أن يفهم فقط ولا يضع موضع الشك أسس المجتمع الذى يدرسه ، نجد الاستشراق يعطى لنفسه حق الحكم بل وحق الاتهام والرفض للأسس الإسلامية التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى[١] . وذلك ناتج عن نوايا مسبقة لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون نوايا علمية صافية ، كما يدعى المستشرق «رودى بارت» .

(٦) يعد الاستشراق أسلوبًا خاصًا فى التفكير ينبنى على تفرقة أساسية بين الشرق والغرب . (فالشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا) كما قال الشاعر الاستعمارى المشهور «كبلنج - Kipling» . فالغربيون عقليون ومحبون للسلام ومتحررون ومنطقيون وقادرون على اكتساب قيم حقيقية ، أما الشرقيون فليس لهم من ذلك كله شيء[٢] .

ولكن هناك حقيقة هامة يتجاهلها المستشرقون ببساطة ، وهى أن الحضارة الغربية - التى يصفونها باعتزاز بأنها حضارة مسيحية - مبنية فى الأصل على تعاليم رجل شرقى وهو المسيح عليه السلام ، وعلى ما نقلوه عن العرب من علوم عربية ومن تراث قديم تطور على أيدى العرب . وهذه حقيقة تجعل هذه التفرقة المبدئية إلى شرق وغرب والتى يعتمد عليها الاستشراق أمرًا مخالفًا للمنطق. فالمسيحية دين شرقى ، والزعم بأن الغرب متقدم لأنه يدين بالمسيحية ، والشرق متخلف لأنه يدين بالإسلام زعم لا أساس له من العلم ولا من الواقع ، فالتقدم الذى يشهده الغرب اليوم فى مجال العلم والتكنولوچيا لا علاقة له بالمسيحية كدين ، والتخلف الذى يعانى منه الشرق لا يتحمل الإسلام وزره . فهذا التخلف يعد - كما يقول «مالك بن نبى» رحمه الله :

«عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين ؛ لتخليهم عنه لا لتمسكهم به ، كما يزعم الزاعمون»[٣] .

---

(١) جعيط ص ٧٤ .

(٢) راجع : تراث الإسلام ١/ ٩٣ ، إدوارد سعيد ٧٩ .

(٣) مالك بن نبى : مشكلة الأفكار فى العالم الإسلامى ، ص ٧٦ ، القاهرة ١٩٧١م .

(٧) يعمد المستشرقون إلى تطبيق المقاييس المسيحية على الدين الإسلامى وعلى نبيه ﷺ . فالمسيح - فى نظر المسيحيين - هو أساس العقيدة؛ ولهذا تنسب المسيحية إليه . وقد طبق المستشرقون ذلك على الإسلام واعتبروا أن محمداً ﷺ يعنى بالنسبة للمسلمين ما يعنيه المسيح بالنسبة للمسيحية، ولهذا أطلقوا على الإسلام اسم «المذهب المحمدى - Mohammedanism» وأطلقوا على المسلمين وصف «المحمديين» .

ولكن هناك سببًا آخر لاستخدام هذا الوصف لدى الكثيرين منهم، وهو إعطاء الانطباع بأن الإسلام دين بشرى من صنع محمد، وليس من عند الله . أما نسبة المسيحية إلى المسيح، فلا تعطى هذا الانطباع لديهم لاعتقادهم بأن المسيح ابن الله .

وتتم مقارنة أخرى بين محمد والمسيح، يكون المسيح فيها هو المقياس . فمحمد مزواج وشهوانى فى مقابل المسيح العفيف الذى لم يتزوج، ومحمد محارب وسياسى، أما يسوع فهو مسالم مغلوب على أمره ومعذب يدعو إلى محبة الأعداء وهكذا[١] .

(٨) إن الإسلام الذى يعرضه هؤلاء المستشرقون - المتحاملون على الإسلام - فى كتبهم هو إسلام من اختراعهم، وهو بالطبع ليس الإسلام الذى ندين به، كما أن محمداً الذى يصورونه فى مؤلفاتهم ليس هو محمد الذى نؤمن برسالته، وإنما هو شخص آخر من نسج خيالهم[٢] .

وهكذا يمكن القول بأن الاستشراق - فى دراسته للإسلام - ليس علمًا بأى مقياس علمى، وإنما هو عبارة عن أيديولوچية خاصة يراد من خلالها ترويج تصورات معينة عن الإسلام، بصرف النظر عما إذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق أو مرتكزة على أوهام وافتراءات .

وهذا يذكرنا بما كان يفعله السوفسطائيون قديمًا .

فإذا وصفنا المستشرقين المتحاملين على الإسلام بأنهم السوفسطائيون الجدد، فنحن بذلك لم نتجن عليهم على الإطلاق، ولم نتجاوز التعبير عن الواقع الذى يعيشونه مع الإسلام المفترى عليه .

---

(١) جعيط ٦٣ .

(٢) د. حسين مؤنس (راجع الفكر الإسلامى الحديث للدكتور البهى ص ٥٧٠) .

وأخيراً..

فإن قضية التفاهم بين الأمة الإسلامية والشعوب الغربية وإقامة علاقات ودية بينهما لخدمة مصالح كلا الجانبين، أصبحت من القضايا الملحة فى عصرنا الراهن الذى تشابكت فيه المصالح وتعددت أوجه اعتماد كل جانب على الآخر، هذه القضية ـ التى هى قضية السلام والاستقرار ـ لا تخدم عن طريق التهجم على مقدسات الشعوب الإسلامية أو الطعن فى دينها وعقائدها أو الانتقاص من قيمها. وقد آن الأوان لوضع حد لهذه الحملات العدائية ضد المسلمين والإسلام، سواء من جانب المستشرقين أو فى وسائل الإعلام الغربية.

ومن ناحية أخرى فإن الديانات السماوية بصفة خاصة قد أصبحت اليوم مهددة من جانب التيارات المادية الإلحادية التى تجتاح العالم اليوم. والتهديد ليس موجهًا ضد الإسلام فقط وإنما هو موجه بالقدر نفسه ضد المسيحية واليهودية، وهذا أمر يتطلب توحيد جهود الأديان السماوية كلها للوقوف صفًا واحداً ضد الإلحاد الذى يكاد يعصف بكل القوى الروحية فى العالم.

ولن يتحقق مثل هذا التعاون طالما ظلت فئة من المستشرقين سادرة فى غيها، ومستمرة فى عدوانها على الإسلام ومقدساته، وعلى المسلمين وقيمهم الدينية.

وإذا كانت المسألة مسألة سوء فهم ترسخ على مدى قرون طويلة، فعلى المستشرقين أنفسهم أن ينهضوا اليوم للقضاء عليه؛ لأن سوء الفهم ليس من جانبنا ـ نحن المسلمين ـ وإنما هو أساسًا من جانب الغربيين أنفسهم. فنحن نحترم المسيح عليه السلام، ونؤمن بنبوته وسمو رسالته وطهارة مريم، كما نؤمن بموسى ـ عليه السلام ـ ونبوته، ونؤمن بأن محمداً ﷺ كان آخر حلقة فى سلسلة النبوات الربانية.

ويعترف بعض الكتّاب الغربيين المعتدلين بتحميل الغربيين للجانب الأكبر من سوء الفهم. وفى ذلك يقول «إميل ديرمانجيم»:

«. . . حين اشتعلت الحرب بين الإسلام والمسيحية ودامت عدة قرون اشتد النفور بين الفريقين، وأساء كلٌ منهما فهم الآخر، ولكن يجب الاعتراف بأن إساءة الفهم كانت من جانب الغربيين أكثر مما كانت من جانب الشرقيين. ففى الواقع، أنه على أثر تلك المعارك العقلية العنيفة التى أرهق فيها الجدليون البيزنطيون الإسلام بمساوئ واحتقارات دون أن يتعبوا أنفسهم فى دراستهم ـ هب الكتاب والشعراء المرتزقة من الغربيين وأخذوا يهاجمون العرب، فلم تكن مهاجمتهم إيَّاهم إلا تهمًا باطلة بل متناقضة»[1].

***

(١) نقلاً عن د. غلاب: نظرات استشراقية ص٩.

الفصل الثالث

موقفنا من الاستشراق

تمهيد

بعد أن اتضحت لنا بعض الشيء - في الفصلين السابقين - أبعاد المواقف الاستشراقية بإيجابياتها وسلبياتها، يبقى أمامنا السؤال الكبير: ماذا فعلنا نحن؟

ما موقفنا من الحركة الاستشراقية؟

إنها حركة فكرية هائلة، وما تنتجه يخصنا ويخص عقيدتنا ولغتنا وتراثنا وتاريخنا وذاتيتنا. هل نكتفي بموقف المتفرج فى المسرح تعجبه بعض المشاهد فتتهلل أساريره، ولا تعجبه بعض المشاهد الأخرى فيقطب جبينه ويمط شفتيه؟

إن الأمر هنا يختلف تمامًا، فالأمر ليس مجرد استحسان أو استهجان عابرين: نفرح حين يمن علينا بعضهم بكلمات المدح، ونفزع غاضبين حين يصب علينا بعضهم الآخر صواعق فكرية، فنستعيذ بالله من شياطين الإنس ونعتبر الموضوع منتهيًا، ثم نستأنف سيرنا العادى الرتيب.

لا إن الأمر أخطر من ذلك بكثير؛ لأنه يتعلق بأعمق أعماقنا عقديًا وفكريًا وحضاريًا. وليس هناك أمامنا من سبيل إلا المواجهة وقبول التحدى وإثبات الذات، وإلا فلسنا جديرين بالحياة.

لقد أضعنا الكثير من عمر الزمن فى تفاهات الأمور، وغيرنا يصارعنا فى عظائم الأمور، ونحن لاهون، غافلون، غير مكترثين... يزلزل الآخرون فى جذورنا ونحن لا نشعر ولا نعى، وإن شعرنا فهو شعور الكسول المتباطئ الذى يجد المتعة فى التمطى والتثاؤب أكثر مما يجدها فى الحركة والعمل.

إن المستشرقين يعملون ونحن لا نعمل. وهذا هو الفارق بيننا وبينهم بصرف النظر عن طبيعة العمل الذى يقومون به. وقد آن الأوان لنعمل نحن أيضاً. . لنعمل حتى الموت لأن المسألة مسألة مصير.

وفى الصفحات التالية نستعرض معًا موقفنا وما يتطلبه العمل الإسلامى منا فى هذا المجال، ونضع أمام المسلمين الغيورين بعض المقترحات التى نعتقد أنها يمكن أن تعوض بعض ما فات من وقت ضائع وكرامة مهانة وذات منهارة.

الصراع الفكرى ومتطلباته..

لقد كانت التيارات الفكرية الأجنبية القديمة ـ التى كانت تمثل تحديًا للإسلام والفكر الإسلامى الأصيل فى عصور الإسلام الزاهرة ـ كانت حافزًا للمسلمين فى تلك الأيام الخوالى للوقوف أمامها بقوة وصلابة. وقد كانت المواجهة على مستوى التحدى بل تفوقه. فقد هضم الفكر الإسلامى تلك التيارات هضمًا دقيقًا واستوعبها استيعابًا تامًا ثم كانت له معها وقفته الصلبة وبالأسلحة الفكرية نفسها. فالمواجهة إذًا كانت مواجهة فكرية.

وكأن التاريخ الآن يُعاد نفسه، فالحرب الآن بين الإسلام والتيارات المناوئة له حرب أفكار، والمعركة معركة فكرية، ولهذه المعركة أدواتها التى يجب التسلح بها، فالخسران فى هذه المعركة أشد وطأة وأقوى تأثيرًا وأعظم فتكًا من خسارة أية معركة حربية أيًا كان حجمها.

لننظر مثلاً أنموذجًا رائدًا فى تاريخ الفكر الإسلامى. . إنه حجة الإسلام «الغزالى» الذى خاض غمار معارك فكرية عديدة وخرج منها جميعًا منتصرًا، فماذا كان يفعل؟ يقول «الإمام الغزالى» فى كتابه (المنقذ من الضلال):

«. . . إنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلمهم من أهل ذلك العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم.

وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقًا»[١].

وقياسًا على ما يقوله الإمام الغزالى نجد أن استيعاب الإنتاج الاستشراقى حول الإسلام ودراسته دراسة عميقة هو الخطوة الأولى لنقده نقدًا صحيحًا وإثبات ما يتضمنه من تهافت أو زيف، الأمر الذى يجعل المستشرقين المنحرفين عن جادة الصواب يفكرون ألف مرة قبل أن يكتبوا تحسبًا لما قد يواجههم من نقد علمى يعريهم ويثبت زيف ادعاءاتهم.

ويؤكد هذه الحقيقة المستشرق الفرنسى «مكسيم رودنسون» حين يشير إلى أن النقد الأوروبى ربما يكون غير عادل فى نقاط معينة، ولكن القيام بتفنيد هذا النقد يقتضى بدوره دراسته أولاً؛ إذ لا يمكن نقضه إلا على الأساس نفسه الذى قام عليه[٢].

ويجب أن يرتبط نقدنا لإنتاج المستشرقين بنقد ذاتى حقيقى بصفة مستمرة، يجب أن نواجه أنفسنا مواجهة حقيقية بعيوبنا وقصورنا وتقصيرنا، وأن نكون على وعى حقيقى بالمشكلات التى تواجهنا فى هذا العالم المعاصر.

وقد يتمثل الجانب الإيجابى للاستشراق فى صورة الهجوم علينا وعلى أمجادنا وليس فى صورة المدح، وإن كان هذا يبدو أمرًا غريبًا، وهو غريب حقًا. لكن إذا عرف السبب بطل العجب. فكلنا يعلم أن هناك عددًا لا بأس به من المستشرقين المنصفين قد مدحوا حضارتنا فى مؤلفاتهم، وأثنوا على علمائنا ومجدوا تراثنا. وآخرهم المستشرقة الألمانية المعاصرة «زيجريد هونكه» فى كتابها «شمس الله تسطع على الغرب» وفى كتابها الذى صدر حديثًا بعنوان «الله ليس كذلك».

ونحن نقدر لهؤلاء العلماء هذه الجهود العلمية العادلة، ونشكر لهم باسم العلم إخلاصهم للحقيقة ووقوفهم فى صف النزاهة العلمية والتزامهم بالموضوعية والبعد عن الأهواء والأغراض.

ولكن هناك ملاحظة فى هذا المقام تخصنا - نحن المسلمين - وتتلخص هذه الملاحظة فى أن جانب المدح والثناء قد يكون له تأثير تخديرى علينا[٣]. فيجعلنا نغمض عيوننا

(١) المنقذ من الضلال - تحقيق د. عبد الحليم محمود ص ١٠٣ - القاهرة (بدون تاريخ).

(٢) M.Rodinson: Mohammed. Frankfurt M.1975. p.8.

(٣) انظر: إنتاج المستشرقين لمالك بن نبى - ص ٢٣ القاهرة ١٩٧٠م.

مستسلمين لتلك الأحلام السعيدة التى تذكرنا بالعز الذى كان، ونركن إلى ذلك ونعيش على صيت آبائنا وأجدادنا، ونظن أننا عظماء لأن أجدادنا كانوا عظماء، ورحم الله جمال الدين الأفغانى، فقد زاره شكيب أرسلان ذات مرة وحكى له ما يروى من أن العرب عبروا المحيط الأطلنطى قديمًا واكتشفوا أمريكا قبل الأوروبيين. فرد عليه جمال الدين الأفغانى قائلاً:

«إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان: كونوا بنى آدم، أجابوه: إن آباءنا كانوا كذا وكذا وعاشوا فى خيال ما فعل آباؤهم غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه من الخمول والضعة. إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا: أفلا ترون كيف كان آباؤنا؟ نعم قد كان آباؤكم رجالاً. ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم»[1].

ومن هنا نقول: إن الجانب الهجومى التفنيدى الاستفزازى فى إنتاج المستشرقين قد يكون بالنسبة لنا خيراً من جانب المدح تأكيداً للمثل المعروف (رُب ضارة نافعة). فقد يكون هذا الاستفزاز حافزاً لنا على الخروج من حالة الركود الفكرى التى وصلنا إليها فننهض بعد طول رقاد، وننطلق من جديد نبنى أفكارنا، ونعيد ترتيب ثقافتنا. وبذلك نقبل التحدى ونستجيب له بانطلاقة إسلامية حضارية جديدة. ولعل هذا ينطبق عليه تفسير «توينبى» للحضارة بأنها استجابة للتحدى، بمعنى أنها رد معين يواجه به شعب من الشعوب تحديًا معينًا.

وهذا الرد ليس مجرد استنفاد الطاقات فى رد الهجوم وترقب الطعنات للرد عليها، وإنما هو الرد الفعال الذى ينتقل إلى الموقف الأقوى. فلا يجوز أن نقف دائمًا موقف المعتدى عليه، فالمعتدى عليه غالبًا ما يكون ضعيفًا. ولهذا لا بد من أن نغير وضعنا وذلك لن يكون إلا بتغيير أفكارنا، فنحن لسنا متخلفين لقلة ما لدينا من إمكانات مادية ولكن تخلفنا لقلة أفكارنا وتبدد جهودنا. ولن تتغير أحوالنا إلا بتغيير ما فى نفوسنا طبقًا للمبدأ القرآنى القائل:

﴿... **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**...﴾ [الرعد: ١١].

---

(١) زعماء الإصلاح للأستاذ أحمد أمين ص ١١٠ ـ القاهرة ١٩٧١م.

ولا بد لنا من أن نعترف بأن الاستشراق يستمد قوته من ضعفنا، ووجوده نفسه مشروط بعجز العالم الإسلامى عن معرفة ذاته. فالاستشراق فى حد ذاته كان دليل وصاية فكرية[1]. ويوم أن يعى العالم الإسلامى ذاته وينهض من عجزه ويلقى من على كاهله أثقال التخلف الفكرى والحضارى - يومها سيجد الاستشراق نفسه فى أزمة، وخاصة الاستشراق المشتغل بالإسلام، ويومها لن يجد الجمهور الذى يخاطبه لا فى أوروپا ولا فى العالم الإسلامى.

ولا يجوز لنا أن ننتظر من غيرنا - أيًا كان هذا - أن يساعدنا على النهوض من كبوتنا، فقد تعلمنا من تراث الأجداد أنه:

«ما حك جلدك مثل ظفرك - فتول أنت جميع أمرك».

وإذا كان علينا أن نضع عن أنفسنا أغلال الوصاية الفكرية، فإن علينا من ناحية أخرى أن نتحرر من عقدة التخلف التى تسيطر علينا فى جميع مناحى حياتنا، والتى تسد علينا منافذ الأمل فى الخروج من أزمتنا، فقد تحررنا من الاستعمار العسكرى، ولكننا لم نتحرر من القابلية للاستعمار - كما يقول مالك بن نبى رحمه الله - ولهذا، فإن نظرتنا لكل ما يأتى من الغرب هى نظرة التقدير والإكبار حتى وإن كان هذا الذى يرد إلينا متمثلاً فى أزياء غريبة عن أذواقنا وتقاليدنا، أو شرائط تحمل ألحانًا صاخبة وأصواتًا مزعجة تصرخ بعنف يحطم الأعصاب، ونعدها فنًا نتلقفه ونحاكيه لأنه قادم من الغرب المتقدم، غافلين عن الأسباب التى أفرزت فى الغرب مثل هذه الظواهر، وهى أسباب غريبة عنًا بكل تأكيد.

ويبدو أن «عقدة الخواجة» والتقدير الفائق لقدرات الأجنبى أمر ضارب بأطنابه فى تاريخنا، فقد حكى الجاحظ فى كتاب البخلاء[2] الحكاية التالية عن طبيب عربى مسلم هو (أسد بن جانى). يقول الجاحظ:

«وكان طبيبًا فأكسد مرة، فقال له قائل: السنة وبيئة، والأمراض فاشية، وأنت عالم ولك صبر وخدمة، ولك بيان ومعرفة، فمن أين تؤتى فى هذا الكساد؟

---

(١) هشام جعيط: أوروپا والإسلام ص ٦٨. ترجمة د. طلال عتريسى - دار الحقيقة بيروت ١٩٨٠م.

(٢) ص: ١٠٩، ١١٠ طبعة ليدن (نقلاً عن الشيخ مصطفى عبد الرازق: خمسة من أعلام الفكر الإسلامى ص ٢٠ - دار الكاتب العربى - بدون تاريخ).

قال: أما واحدة، فإني عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب، لا بل قبل أن أخلق، أن المسلمين لا يفلحون في الطب، واسمي أسد، وكان ينبغي أن يكون اسمي صليبًا، ومراسل، ويوحنا، وبيرا، وكنيتي أبو الحارث، وكان ينبغي أن تكون: أبو عيسى، وأبو زكريا، وأبو إبراهيم، وَعَلَيَّ رداء قطن أبيض، وكان ينبغي أن يكون عَلَيَّ رداءٌ أسود، ولفظي عربي وكان ينبغي أن تكون لغتي لغة أهل جنديسابور».

وقد سمعت حكاية غريبة منذ سنوات مؤداها: أن إحدى الدول العربية كانت قد تعاقدت مع أحد الأساتذة الأمريكيين للتدريس في جامعاتها. وقد كان لدى هذا البلد العربي حينذاك جدول غريب للمرتبات لأعضاء هيئة التدريس في الجامعة. في قمته الأوروبيون والأمريكيون، وفي أوسطه الآسيويون من الهند وباكستان، وفي أسفله العرب. وعندما حضر الأستاذ الأمريكي تبين أنه يتحدث العربية بطلاقة وأنه أصلاً عربي تجنس بالجنسية الأمريكية، وعندئذ أصر هذا البلد العربي على وضع هذا الأستاذ - لأنه أصلاً عربي - في أسفل جدول المرتبات مع الأساتذة العرب.. ولكن الأستاذ رفض ذلك ولجأ إلى السفارة الأمريكية لتحميه من الظلم العربي، واستطاعت السفارة أن ترغم هذا البلد العربي على دفع التعويض الذي ينص عليه العقد لهذا الأستاذ الذي عاد إلى بلاده الجديدة التي تقدر كفاءته.

كيف نستطيع أن ننتصر في قضية الصراع الحضاري بمثل هذه العقليات المتخلفة؟

لا بد من تغيير جذري في أسلوب حياتنا، ولا بد من إعادة النظر في ثقافتنا وفي تفكيرنا.

إن قضية التقدم - المادي والروحي - قضية لا خلاف عليها، واللحاق بركب التطور العلمي والتقني أمر لا جدال فيه. ولكن السؤال الجوهري هو:

هل نحن حريصون حقًا على الحفاظ على هويتنا وعقائدنا وتراثنا واستقلالية شخصيتنا الإسلامية أم لا؟

إذا كانت الإجابة بالإيجاب، فنحن إذن أصحاب قضية يجب أن نعمل من أجلها بكل إمكاناتنا وطاقاتنا.. وهي قضية مصيرية من أجل إثبات الذات.. قضية صراع حضاري مرير.

والاستشراق طرف فى هذه القضية؛ لأن كثيراً من الدراسات الاستشراقية فى مجال الإسلاميات تهدف بطريق مباشر أو غير مباشر إلى طمس معالم هويتنا، والتشكيك فى عقائدنا وتراثنا، والنيل من استقلالية شخصيتنا العربية الإسلامية. والتصدى لذلك من جانبنا له أساليب مختلفة ترتكز كلها على شرط جوهرى لا بد من توفره قبل أن نخطو خطوة واحدة فى هذا السبيل، **ويتمثل هذا الشرط فى الثقة بالنفس والإيمان بالهدف**.

وسنحاول فيما يلى عرض بعض الأساليب التى يمكن أن تساعدنا على الوصول إلى أهدافنا المرجوة.

١ ـ موسوعة الرد على المستشرقين...

إن المواجهة الفكرية الجادة ـ كما سبق أن أشرنا ـ هى الطريق الصحيح لمجابهة أى تيارات مناوئة للإسلام والمسلمين، ومن أجل ذلك ينبغى علينا أن ننظر إلى حركة الاستشراق بكل جدية، ونأخذ فى الحسبان أن لها آثاراً كبيرة على قطاعات عريضة من المثقفين فى العالم الإسلامى وفى العالم الغربى على السواء. ولهذا لا بد من التوفر على دراسة الاستشراق دراسة عميقة. ولا يكفى أن نقول: إن ما كتبوه كلام فارغ. فهذا الكلام الفارغ مكتوب بشتى اللغات الحية ومنتشر انتشاراً واسعًا على مستوى عالمى. ومواجهته لا بد أن تكون على المستوى العالمى نفسه، وبالكلام «المليان» على حد تعبير الدكتور حسين مؤنس[(١)].

وفى هذا الصدد، يجدر بنا أن نشير هنا إلى أحد المشاريع المتعلقة بهذا الموضوع وما أكثر مشروعاتنا. وما أكثر ما لدينا من نوايا طيبة. ولكن الذى ينقصنا هو ترجمة المشروعات إلى واقع ملموس وتحويل النوايا الطيبة إلى إرادة للعمل المثمر الذى يثبت أركان الشخصية الإسلامية، ويحفظ ما لها من مقدسات، ويرد عنها كيد الأعداء ويسير بها نحو البناء الحضارى السليم.

لقد دعت المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة فى القاهرة فى نهاية عام ١٩٧٩م إلى ندوة لمناقشة موضوع إعداد «موسوعة للرد على المستشرقين». وقد حضر الندوة

---

(١) من مقال له ألحقه الدكتور محمد البهى بكتابه: الفكر الإسلامى الحديث انظر ص ٥٧٦، ٥٧٧.

عدد يزيد على العشرين من العلماء والمفكرين المهتمين بهذا الموضوع. وقد تشرفت بأن كنت مقرراً لهذه الندوة التى عقدت جلساتها على مدى ثلاثة أيام. وفى ختام الندوة قمت بإعداد تقرير ختامى عن المنهج العلمى الواجب اتباعه فى إعداد هذه الموسوعة. وذلك فى ضوء المناقشات التى دارت فى الندوة. وتم تسليم التقرير فى حينه إلى المسئولين عن الندوة المذكورة. وقضى الأمر، ونامت الفكرة. ولعل ذلك يرجع إلى الظروف السياسية التى سادت المنطقة العربية عقب الندوة بفترة قصيرة.

وفيما يلى أورد هنا نص هذا التقرير، ننشره تذكرة وعبرة. فقد يوفق الله من يشاء من عباده - ممن تتوفر لديهم الحماسة الكافية والقدرة على التنفيذ - إلى العمل على تحريك مثل هذا المشروع وغيره من مشروعات علمية نافعة لترى النور حتى تستطيع هى بدورها أن تنير للمدلجين وتهدى الحائرين. وإليك التقرير المذكور:

تقرير حول المنهج العلمى الواجب اتباعه فى إعداد موسوعة الرد على المستشرقين:

(أ) أسلوب التناول

١ - إن التطورات الفكرية فى عالم اليوم والتقدم العلمى العظيم الذى حققه الإنسان فى العصر الحاضر فى مختلف المجالات يقتضى أن نكون فى معالجتنا للقضايا التى أثارها الفكر الاستشراقى على وعى تام بمقتضيات العصر وإدراك كامل للمستويات الثقافية السائدة.

ومن أجل ذلك، ونظراً لأن هذه الموسوعة تخاطب جمهرة المثقفين الذين أتيح لهم الاطلاع على شبهات المستشرقين - ينبغى أن يكون تناولنا للموضوعات التى تشتمل عليها الموسوعة الإسلامية المقترحة تناولاً موضوعيًا مدعمًا بالحقائق العلمية والشواهد التاريخية والبراهين العقلية، وكذلك بالأسانيد الدينية فيما يتعلق بالعلوم النقلية التى يعترف المستشرقون بالمناهج التى استخدمت فيها.

٢ - يتطلب الرد على الشبهات والطعون التى أثارها المستشرقون عرض هذه الشبهات والرد عليها تفصيليًا بعيدًا عن النزعات الهجومية حتى يكون لهذا العمل العلمى أثره الإيجابى لدى المثقفين من كل الطبقات من المسلمين وغير المسلمين. وحتى يكون دافعًا للمستشرقين إلى إعادة النظر فى أقوالهم وعونًا لهم على تصحيح اتجاهاتهم

حول الإسلام وتاريخه وحضارته. وفي النهاية يكون هذا العمل العلمي بمثابة تعريف بالإسلام لكل راغب في التعرف عليه.

٣- ينبغي أن تقتصر هذه الموسوعة على الموضوعات التي كانت مثار أخذ ورد وجدل لدى المستشرقين، وبصفة أساسية في القرنين التاسع عشر والعشرين.

ومن أجل ذلك، فليس هناك ما يدعو للحديث عن موضوعات لم يتطرق المستشرقون للخوض فيها بالرفض أو بالقبول؛ إذ ليس الهدف هنا هو التأريخ الكامل للحضارة الإسلامية.

٤- من المعروف أن المستشرقين لا يشكلون اتجاهًا واحدًا في كل المسائل الإسلامية التي تعرضوا لها. فهناك مسائل يختلفون فيها ما بين مؤيد ومعارض، ولذلك ينبغي إبراز ردود بعض المستشرقين على بعضهم الآخر بصدد بعض الشبهات التي أثاروها حول الإسلام والحضارة الإسلامية.

٥- ينبغي أن تصدر الموسوعة بدراسة عن الاستشراق بوجه عام على أن تبين هذه الدراسة أهداف الاستشراق ومناهجه والأسباب التي دعت إلى الدراسات الاستشراقية وأدت إلى إثارة الطعون والشبهات حول الإسلام وتاريخه وحضارته.

(ب) فروع العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي

لقد تناول المستشرقون في دراساتهم كل فروع العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي بصفة عامة وركزوا على بعض القضايا الهامة التي تتصل بأصالة الدين الإسلامي وأصالة الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية، ويمكن تقسيم المجالات العلمية التي ستكون محوراً للتناول في هذه الموسوعة إلى مجالين رئيسيين يندرج تحتهما فروع مختلفة على النحو التالي:

أولاً: علوم دينية، وتشمل دراسات المستشرقين حول الدين الإسلامي بصفة عامة، وحول القرآن الكريم بصفة خاصة مع العناية بدراسة الترجمات المختلفة التي قاموا بها للقرآن الكريم، وتقويم هذه الترجمات. وتشمل كذلك الدراسات المتعلقة بالتفسير وعلوم القرآن والحديث وعلومه والفقه الإسلامي، وعلم الكلام والتصوف وأصول الفقه. مع الاهتمام بتقويم مناهج المستشرقين في هذه الدراسات ووضعها في ميزان النقد العلمي وبيان ملاءمتها أو عدم ملاءمتها لهذه الدراسات.

ثانيًا: علوم إنسانية، وتشمل علوم الفلسفة واللغة وعلومها والأدب وتاريخه والنقد الأدبى والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامى والجغرافيا والعمارة الإسلامية، كما تشمل أيضًا الحساب والجبر والهندسة والفلك وعلوم الكيمياء والطب والصيدلة والنبات والحيوان. مع الاهتمام بإبراز مدى أصالة المسلمين وإبداعهم فى كل هذه المجالات ومدى ما أسهموا به وقدموه للحضارة الإنسانية.

(ج) خطوات تحضير المادة ومراحلها

١ـ يجب فى البداية القيام بحصر شامل لكتابات المستشرقين عن المجالات سالفة الذكر فى القرنين التاسع عشر والعشرين بصفة أساسية باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسپانية والإيطالية والروسية، ويشمل هذا الحصر الكتب والمجلات والدوريات.... إلخ.

والقيام بعملية حصر هذه الأعمال الاستشراقية يحتاج على الأقل إلى خبير، وعدد من المساعدين فى مجال كل لغة من هذه اللغات الست.

على أن يستعان فى هذا الحصر أيضًا بالمتخصصين فى المجال الاستشراقى ممن اعتنقوا الإسلام فى أوروپا وغيرها.

٢ـ لا بد من توفير كل الأعمال الاستشراقية المشار إليها عن طريق الشراء إذا كانت متوفرة أو عن طريق التصوير إذا لم يمكن شراؤها. وتشكل هذه الأعمال مكتبة استشراقية تكون تحت أيدى الخبراء والعلماء الذين يشتركون فى إعداد الموسوعة.

٣ـ يقوم جهاز متعاون من الخبراء فى اللغات الست المشار إليها بتحضير المادة وتصنيف الموضوعات وضم المادة التى يتكرر الحديث عنها فى لغات مختلفة تحت موضوع واحد حتى يتم الرد عليها جملة واحدة.

٤ـ تقدم المادة للعلماء الذين سيقومون بإعداد الردود العلمية، ويراعى عند تقديم هذه المادة لهم أن تترجم لهم الأفكار الأساسية للقضايا المطلوب الكتابة فيها من اللغات التى لا يجيدون القراءة بها حتى يكون لديهم تصور شامل لكل ما قيل حول القضية المطروحة، وحتى يغطى التناول للموضوع وجهات النظر التى قيلت فيه.

(د) الإعداد والتحرير

١ـ يحتاج هذا العمل الموسوعى الضخم إلى عدد كبير من العلماء المسلمين فى التخصصات المختلفة يطلب منهم الكتابة فى موضوعات محددة حسب المادة التى تقدم إليهم، كلٌ فى مجال تخصصه، على أن يكون الرد فيها وافيًا بعيدًا عن التطويل الممل أو الإيجاز المخل، وطبيعة الموضوعات هى التى ستحدد حجم الردود المطلوبة، وتوضع خطة زمنية أقصاها ستة أشهر لوصول الرد.

٢ـ يتم تحرير الموضوعات باللغة العربية، وفى الحالات التى لا يجيد فيها أحد العلماء المسلمين اللغة العربية يمكن الكتابة بإحدى اللغات الأجنبية على أن تتم ترجمة الموضوع إلى اللغة العربية فور وصوله.

(هـ) المراجعة والتدقيق

عند وصول رد من الردود يحال إلى لجنة مختصة بالمراجعة والتدقيق تنحصر مهمتها فى فحص الرد من جميع جوانبه الدينية والعلمية والتاريخية . . . إلخ. ومدى وفائه بالغرض المطلوب وهو استيعابه التام للرد على الشبهة المراد الرد عليها وتفنيد حججها بالأدلة الدامغة.

(و) التوزيع المحدود

عندما تعتمد لجنة المراجعة ردًا من الردود يتم تصويره، ويوزع توزيعًا محدودًا على مجموعة من العلماء المتخصصين على مستوى الوطن الإسلامى لإقراره واعتماده اعتمادًا نهائيًا أو بيان ما قد يكون هناك عليه من ملاحظات لمراعاتها وأخذها بعين الاعتبار.

(ز) الطباعة والنشر والترجمة

بعد مرحلة التوزيع المحدود واعتماد الرد اعتمادًا نهائيًا يتم إعداده للطباعة فى إطار مجال من مجالات فروع العلوم الإسلامية والفكر الإسلامى السابق الإشارة إليها،

وفى الوقت نفسه تبدأ مجموعة من الخبراء فى ترجمته إلى اللغات الأجنبية الست التى سبقت الإشارة إليها. ويمكن أن يتم النشر فى وقت واحد باللغة العربية وهذه اللغات الأجنبية.

ولعل فى ذلك فائدة أكثر ونفعًا أعم.

وبذلك تنشر الموسوعة على مراحل حسب العمل الذى يتم إنجازه، مع مراعاة ضم قضايا المجال الواحد معًا لتشكل وحدة متكاملة يمكن أن تأخذ صورة كتاب فى موضوع معين. وعندما يتم الانتهاء من الموسوعة يمكن إعادة طبعها مرة أخرى فى صورة مكتملة.

ولتمام الفائدة وسرعة العثور على الموضوع المطلوب فى الموسوعة لا بد من القيام بعمل كشاف فى نهاية الموسوعة يضم فهرسًا موضوعيًا وفهرسًا للأعلام.

الهيئة العلمية للمشروع

١ـ يتطلب هذا المشروع الكبير ـ الذى يقدم للجيل المعاصر والأجيال القادمة أهم خدمة علمية إسلامية فى بداية القرن الخامس عشر الهجرى ـ عددًا لا يقل عن مائة من العلماء المتخصصين فى شتى مجالات الفكر الإسلامى على مستوى العالم الإسلامى من أصحاب الكفاءات العلمية الممتازة يقومون بمهمة الإعداد والتحرير لموضوعات الموسوعة.

٢ـ تقوم لجنة علمية دائمة بمهمة الإشراف والمراجعة وتكون ـ بالتعاون مع الأمانة الفنية ـ مختصة بالاتصال بالعلماء الذين سيشاركون فى كتابة الموسوعة فى شتى أنحاء الوطن الإسلامى، وتقديم المادة العلمية لهم وتلقى ردودهم عليها، وتقوم هذه اللجنة بمراجعة الردود التى تصل إليها مراجعة دقيقة يتم بعدها توزيعها توزيعًا محدودًا على مجموعة من العلماء لمراجعتها مراجعة نهائية واعتمادها حتى تكون معدة للطبع.

وتقوم اللجنة العلمية الدائمة أيضًا بمهمة تبويب موضوعات الموسوعة وتحديد فصولها لتكون معدة للطبع بصورة نهائية متكاملة.

ويتطلب العمل فى هذه اللجنة تفرغًا كاملاً لعدد لا يقل عن اثنى عشر من العلماء المتخصصين فى مختلف مجالات الفكر الإسلامى.

ومن المفيد أن يكون هناك تكامل بين أعضاء هذه اللجنة من حيث الخبرة بمعرفة اللغات الأجنبية الست المشار إليها . ولهذه اللجنة أن تستعين بمن ترى الاستعانة بهم من العلماء المتخصصين .

٣ـ يكون هناك مجلس للأمناء يضم اللجنة العلمية الدائمة والأمانة الفنية والأمانة المالية ويقوم هذا المجلس بالتنسيق بين الأجهزة المختلفة المشرفة على المشروع . ويجتمع هذا المجلس مرة واحدة كل ستة أشهر لدراسة تقرير شامل يقدم إليه عن سير العمل فى المشروع ومدى التقدم فيه ووضع الحلول لما قد يكون هناك من مشكلات تعوق سير التنفيذ . . والله ولى التوفيق . (انتهى التقرير) .

ولم تكن هذه هى المحاولة الأولى فى هذا الصدد . فهناك محاولة أخرى قامت بها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيكو) . فقد أقامت هذه المنظمة ندوة بمدينة يفرن بالمملكة المغربية عام ١٩٨٥م حول «تصحيح التصورات الغربية عن الإسلام فى الموسوعات والمراجع الكبرى» .

وقد شرفتنى هذه الندوة باختيارى مقرراً لها . وعلى مدى ثلاثة أيام، دارت المناقشات التى انتهت ـ نظراً لضيق ذات اليد بالنسبة للموارد المالية المتاحة أمام المنظمة المذكورة ـ إلى التوصية بإصدار مجلد واحد يتضمن الرد على المقالات التى اشتملت على معلومات خاطئة فى دائرة المعارف الإسلامية الجديدة، وبخاصة فى مجالات العقيدة والقرآن الكريم وسيرة النبى ﷺ .

ولست أدرى مصير هذا المشروع المتواضع . ولكن الذى أعلمه جيداً هو تقاعس عالمنا الإسلامى عن تمويل المشروعات الثقافية الهامة والإنفاق ببذخ على أمور مظهرية تافهة .

٢ ـ مؤسسة إسلامية علمية عالمية

لقد آن الأوان للتفكير ـ على مستوى العالم الإسلامى ـ فى إقامة مؤسسة إسلامية علمية عالمية لا تنتمى بالولاء لقُطر معين من الأقطار الإسلامية ولا لمذهب سياسى أو فكرى أو دينى معين، بل يكون ولاؤها الأول والأخير لله وحده ولرسوله

محمد ﷺ ، وتستطيع استقطاب الكفاءات العلمية الإسلامية فى شتى أنحاء العالم، وتقف على قدم المساواة مع الحركة الاستشراقية ، ويكون لها دوريات ومجلات علمية ذات مستوى رفيع تنشر بحوثها بلغات مختلفة، وتعمل على استعادة أصالتنا الفكرية واستقلالنا فى ميدان الأفكار، فهذا هو الطريق الصحيح إلى الاستقلال الاقتصادى والسياسى؛ إذ إن المجتمع الذى لا يصنع أفكاره الرئيسية لا يمكن على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه[1].

والأمر الذى يؤسف له حقًا هو أننا على امتداد العالم الإسلامى بسكانه الذين تجاوزوا الألف مليون[2] وبكل ما لنا من إمكانات هائلة لا نملك مؤسسة علمية دولية لها الإمكانات العلمية المادية نفسها التى تملكها المؤسسة الاستشراقية. أليس هذا من الأمور التى تدعو إلى الأسى والحسرة؟

ويعبر إدوارد سعيد فى كتابه عن (الاستشراق) عن هذا الفراغ الهائل فى حقل الثقافة العربية والإسلامية والآثار المترتبة عليه، فيقول:

«... فما من باحث عربى أو إسلامى يستطيع المخاطرة بتجاهل ما يحدث فى المجلات البحثية والمعاهد والجامعات فى الولايات المتحدة وأوروبا، غير أن العكس ليس بصحيح. ليس هناك مثلاً مجلة رئيسة واحدة للدراسات العربية تصدر فى العالم العربى اليوم، بالضبط كما أنه ليس ثمة من مؤسسة تعليمية عربية واحدة قادرة على مضاهاة أماكن مثل: أكسفورد، وهارفارد، وجامعة كاليفورنيا ـ لوس أنجلوس فى دراسة العالم العربى، دع عنك أى موضوع آخر غير شرقى».

والنتيجة المتوقعة لهذا هى أن الطلاب الشرقيين (والأساتذة الشرقيين) ما يزالون يريدون الحضور إلى الولايات المتحدة والجلوس عند أقدام المستشرقين الأمريكيين، ثم العودة فيما بعد لتكرار القوالب الفكرية (الكليشيهات) ـ التى ما فتئت أسميها مذهبيات جامدة استشراقية ـ على مسامع جمهورهم المحلى. ونظام إعادة إنتاج كهذا يجعل من الحتمى أن يستخدم الباحث الشرقى تدريبه الأمريكى ليشعر بالفوقية على أبناء وطنه، لأنه قادر على (تدبر) النظام الاستشراقى وفهمه واستخدامه، أما فى علاقته بمن هم

---

(١) إنتاج المستشرقين لمالك بن نبى ص ٦٢.

(٢) وصل عدد المسلمين فى العالم اليوم إلى حوالى مليار ونصف مليار من البشر.

أسمى منه مكانة ـ المستشرقون الأوروبيون والأمريكيون ـ فإنه سيبقى (المخبر الذى ينتمى إلى السكان الأصليين). وهذا هو بحق دوره فى الغرب، إذا كان حسن الحظ بحيث يتاح له البقاء فيه بعد انتهاء تدريبه المتقدم»[1].

ولا يجوز الخلط بين هذه المؤسسة العلمية المقترحة وبين لجنة «موسوعة الرد على المستشرقين» التى سبقت الإشارة إليها. فلجنة الموسوعة لجنة مؤقتة لإنجاز مهمة محددة، أما هذه المؤسسة فهى مؤسسة دائمة ولها مهام متعددة.

وقد سبق لنا أن طالبنا فى كتاب سابق[2] بضرورة إقامة هذه المؤسسة العلمية. وكان من بين ما قلناه فى هذا الصدد:

«. . . إن هناك ضرورة ملحة لإقامة مؤسسة إسلامية عالمية للبحوث العلمية الإسلامية، تكون بعيدة كل البعد عن أية تيارات سياسية أو دعائية، ويتكون أعضاؤها من صفوة الباحثين الإسلاميين فى شتى المجالات بصرف النظر عن جنسياتهم، فى حدود مائة عضو يتوزعون إلى مجموعات عمل يتوفر كل فريق منها على دراسة قطاع معين من قطاعات الفكر الإسلامى، وتخطط هذه الصفوة أيضًا للبحوث الإسلامية فى جامعات العالم الإسلامى، فتصل الماضى بالحاضر وتجدد شباب تراثنا وتجنده لخدمة الحياة الإسلامية المتجددة».

وعبرنا عن الأمل فى أن تكون هذه المؤسسة العلمية «أكاديمية حية تشع النور فى كل الأرجاء وتغذى المسلم فى كل أنحاء العالم بالغذاء الفكرى الصحيح، وتنقل دعوة الإسلام فى صفائها إلى شعوب الأرض، وألا تكون تكرارًا لأىٍّ من الهيئات الإسلامية الحالية التى تجتمع فى المناسبات على شكل مؤتمرات لإصدار بيانات لا حياة فيها ولا روح، ولا أثر لها فى حياة المسلم ولا تأثير. والأمل أن تكون تلك الأكاديمية الإسلامية هيئة ربَّانية لا مجال فيها للأهواء، ولا نقصد بذلك أن تكون هيئة كهنوتية أو بابوية فهذا لا مجال له فى الإسلام، ولكننا نريدها هيئة ذات قداسة، لا بأسماء من يعملون فيها، ولكن بما تقدمه من خير للناس ﴿... **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ...**﴾ [الرعد: ١٧].

(١) إدوارد سعيد ص ٣٢٠.
(٢) انظر كتابنا الإسلام فى الفكر الغربى ص ١٦، ١٧.

وهكذا يمكن لمثل هذه المؤسسة أن تقف بالمرصاد لكل التيارات المناوئة للإسلام أيًا كان مصدرها، وأيًا كانت اتجاهاتها. ومن أجل ذلك لا بد أن يكون لها جهاز لمتابعة كل ما ينشر فى العالم من بحوث تتعلق بالإسلام والمسلمين. ويمكن لهذه المؤسسة أيضًا أن تتبنى تيارًا مقابلاً للاستشراق يقوم بدراسة تراث الغربيين ونقد ما عندهم من دين وعلوم وحضارة.

وقد عبر الدكتور مصطفى السباعى - رحمه الله - عن هذا الأمل فقال: «سيأتى يوم نتقلب فيه نحن إلى دراسة تراث الغربيين ونقد ما عندهم من دين وعلوم وحضارة، وسيأتى اليوم الذى يستعمل فيه أبناؤنا وأحفادنا مقاييس النقد التى وضعها هؤلاء الغربيون، فى نقد ما عند هؤلاء الغربيين أنفسهم من عقيدة وعلوم، فإذا هى أشد تهافتًا، وأكثر ضعفًا مما يلصقونه اليوم بعقيدتنا وعلومنا. ترى لو استعمل المسلمون معايير النقد العلمى التى يستعملها المستشرقون فى نقد القرآن والسنة، فى نقد كتبهم *المقدسة وعلومهم الموروثة، ماذا كان يبقى لهذه الكتب المقدسة والعلوم التاريخية* عندهم من قوة؟ وماذا يكون فيها من ثبوت؟».

ثم يقول الدكتور السباعى أيضًا:

«كثيرًا ما أتمنى أن يتفرغ منا رجال للكتابة عن هذه الحضارة (الغربية) وتاريخ علمائها بالأسلوب نفسه الذى يكتب به المستشرقون من تتبع الأخبار الساقطة، وفهم النصوص على غير حقيقتها، وقلب المحاسن إلى سيئات، والتشكيك فى كل خير يصدر عن هؤلاء الغربيين. ولو حصل هذا لخرجت منه صورة لهذه الحضارة ولرجالها مضحكة مخزية ينكرها المستشرقون قبل غيرهم...»[1].

وفكرة إنشاء اتجاه مقابل للحركة الاستشراقية سبق أن أثيرت فى بعض المؤتمرات الإسلامية. ويشير المستشرق «رودى بارت» إلى ذلك بقوله:

«... ولا بأس من أن ننتهز هذه الفرصة فنثير سؤالاً، ولو من ناحية المبدأ، هو السؤال عن إمكانية أن ينشأ فى الناحية الأخرى، أى فى العالم العربى الإسلامى، اتجاه للبحث، شبيه بالدراسات الإسلامية عندنا، ولكن فى الوجهة المقابلة، يهدف إلى دراسة تاريخ الفكر فى العالم المسيحى الغربى وتحليله بطريقة علمية.. وقد دعا

---

(١) الاستشراق والمستشرقون للدكتور السباعى ص ٦٦، ٦٧.

الدكتور محمد رحبار فى المؤتمر الإسلامى العالمى الذى انعقد فى لاهور فى ديسمبر (كانون الأول) ١٩٥٧م/ يناير (كانون الثانى) ١٩٥٨م، بحماس إلى هدف من هذا القبيل، ولكنه لقى معارضة شديدة»[١] .

وعلى أية حال فإن هذه مسألة جانبية لا يجوز أن تشغلنا عن الهدف الأساسى للمؤسسة العلمية المقترحة، فهى مسألة تعد الآن - فى نظرنا - ترفًا فكريًا لم يحن وقته بعد، ويمكن التفكير فيها فى مرحلة أخرى تالية .

أما الآن فإن هناك أولويات أمام العمل الإسلامى لا بد أن تؤخذ فى الاعتبار وتوضع فى الحسبان حتى لا نخطئ الطريق الأسمى، وهو خدمة الإسلام وبناء الحياة الإسلامية على أسس إسلامية متينة والنهوض مرة أخرى دينيًا وثقافيًا وحضاريًا .

٣ ـ دائرة معارف إسلامية جديدة...

ومن بين الأولويات العلمية الملحة مشروع إصدار دائرة معارف إسلامية جديدة . فلا يجوز أن نظل نقتات فكريًا من دائرة المعارف الإسلامية التى قام بإعدادها المستشرقون قبل الحرب العالمية الثانية . فقد تجاوزها المستشرقون وأوشكوا على الانتهاء من إصدار دائرة معارف إسلامية جديدة . وواجبنا - نحن المسلمين - أن نقوم بإصدار دائرة معارف إسلامية باللغة العربية واللغات الأوروبية الرئيسية، تقف على الأقل فى مستوى دائرة المعارف الإسلامية للمستشرقين تخطيطًا وتنظيمًا وتتفوق عليها علميًا، وتنقل وجهة النظر الإسلامية فى شتى فروع الدراسات الإسلامية والعربية إلى المسلمين وغير المسلمين على السواء . فكل فراغ فكرى لدينا لا نشغله بأفكار من عندنا يكون عرضة للاستجابة لأفكار منافية، وربما معادية لأفكارنا، فلا نلومن إلا أنفسنا .

وينبغى ألا يغيب عن الأذهان أن دائرة المعارف الإسلامية المقترحة تختلف عن «موسوعة الرد على المستشرقين» . فالموسوعة محدودة فى إطار الرد على شبهات معينة أثارها المستشرقون، ومناقشة هذه الشبهات وتفنيدها . أما دائرة المعارف الإسلامية المطلوبة فهى عامة وشاملة لكل جوانب الإسلام والفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية بوجه عام .

---

(١) بارت ص ١٣ .

وبالإضافة إلى ذلك يمكن إصدار موسوعات أخرى متخصصة مثل موسوعة للفقه الإسلامي وموسوعة للحديث النبوي وموسوعة للتاريخ الإسلامي . . . إلخ ، وينبغي أن يكون هناك تنسيق بين المؤسسات العلمية في العالم الإسلامي بشأن هذه الموسوعات المختلفة حتى لا تتوزع الجهود وتتكرر الأعمال . فهذا التكرير ـ بكل أسف ـ هو ما يحدث الآن بالفعل ، إذ تقوم أكثر من دولة إسلامية وأكثر من جهة علمية بعمل موسوعات للفقه أو الحديث . . ومن الخير للإسلام والمسلمين أن تتوحد الجهود وتتوفر الإمكانات على إنجاز أعمال غير مكررة . فهذا التكرار يحبس جهود مجموعة من العلماء لسنوات عديدة . وقد كان من الممكن ـ لو صحت العزائم وصدقت النيات ـ أن تتجه هذه الجهود إلى مجالات إسلامية أخرى تنتج فيها أعمالاً ليس لها نظير في جهة أخرى في العالم الإسلامي .

وهكذا ينبغي أن تخرج هذه الأعمال العلمية الإسلامية عن دائرة التباهي والتفاخر بين الدول الإسلامية . فالتنافس في الخير وفي العلم مطلوب . ولكن تبديد الجهد والوقت والمال في أعمال مكررة أمر يجب أن نكف عنه فوراً خدمة للدين الذي نؤمن به والذي هو في أمس الحاجة إلى كل دقيقة من وقت علمائه ، من أجل تقديم عمل نافع للأجيال المسلمة التي تنتظر الكثير من علماء المسلمين حتى تستطيع أن تواجه شتى التيارات الفكرية التي تحيط بها من كل جانب .

٤ ـ جهاز عالمي للدعوة الإسلامية...

ومن الأمور الملحة أيضًا في مجال العمل الإسلامي ضرورة إنشاء مؤسسة إسلامية تبشيرية عالمية ، وأعني بذلك جهازًا للدعوة الإسلامية في الخارج[١] :

يتوالى التعريف بالإسلام من ناحية ، ويرعى المسلمين الجدد من ناحية ثانية ، ويحمي المسلمين بالوراثة من ناحية ثالثة . ويتطلب العمل الإسلامي أيضًا إصدار سلسلة كتب إسلامية باللغات العالمية الحية تصحح التصورات الخاطئة عن الإسلام في الأذهان ، وتعرض الإسلام بأسلوب علمي يتناسب مع العقلية المعاصرة ، وتقدم الحلول الإسلامية لمشكلات المسلمين العصرية .

---

(١) انظر أيضًا ما أوردناه في ذلك في كتابنا «قضايا فكرية واجتماعية في ضوء الإسلام» في نهاية الكتاب تحت عنوان : الدعوة الإسلامية في العالم المعاصر : الأهداف والوسائل .

ومن الممكن فى هذا الصدد الاستفادة بأفكار وخبرات الشخصيات الغربية الواعية التى اعتنقت الإسلام، والاتفاق معها على خطتى عمل إحداهما عاجلة والأخرى طويلة الأمد، للتعريف بالإسلام والثقافة الإسلامية فى الغرب. وقد أشار المفكر الفرنسى «جارودى» - الذى أسلم حديثًا - فى محاضرته التى ألقاها فى كلٍّ من جامعة الملك عبدالعزيز بجدة وجامعة قطر بالدوحة فى أوائل يناير (كانون الثانى) ١٩٨٣م بعنوان (الإسلام وأزمة الغرب)، أشار إلى الحاجة الملحة لنشر الإسلام والثقافة الإسلامية فى الغرب، وتحدث عن بعض الأفكار فى هذا الصدد فى أثناء حديثه عن كشف أساليب التضليل الصهيونى. فكان مما قال:

«إن عملنا فيما يتعلق بشرح مفهوم الصهيونية وأهدافها وطرق عملها يجب ألا يقتصر على الجانب السياسى فقط، بل يجب أن يشمل الجانب الروحى أيضًا. فعلينا أن نقاوم العنصرية القبلية بكونية الإسلام، وإن هدفنا الأخير هو أن نظهر للغربيين كيف أن الإسلام هو الوحيد اليوم القادر على فتح طريق أمام المستقبل خارج النمطين الأمريكى الرأسمالى والاشتراكى السوفيتى اللذين آلا إلى طريق مسدود، وأن يجنبنا حربًا نووية قد تؤدى بالكون إلى الهلاك المحقق.. إننى أعتقد أن وعيى بأن هذا الضلال الغربى المؤدى بالعالم إلى الهلاك وفى الوقت نفسه شعورى بإمكانات الإسلام قد هدانى إلى تأليف كتابى الأخير «تباشير الإسلام»، وأن أضع فى الخط الأول المعركة ضدالتضليل الصهيونى وأن أعتنق الإسلام».

ويرى «جارودى» ضرورة الاستعانة فى هذا الصدد بالعديد من الوسائل عن طريق الحضور المستمر فى وسائل الإعلام الغربية، ونشر الكتب المبسطة التى تكون فى متناول الجميع، أو تنظيم المعارض وإقامة المهرجانات وغيرها مما يساهم فى انتشار الإيمان وثقافة الإسلام. ويرى أيضًا تحويل الجمعية الإسلامية بجنيف إلى مركز للإشعاع الدينى والثقافى، وإقامة مركز إسلامى فى المنطقة الپاريسية.

ويقول أيضًا:

«... نحن بصدد إعداد كتاب عنوانه: (فى الإسلام كل الفنون تؤدى إلى المسجد، وكل المساجد تؤدى إلى الصلاة)... وعن طريق تنوع الثقافات والفنون التى استوعبها الإسلام نحاول إبراز معانى وحدة وشمولية الإيمان. وأعتقد أن هذا يمثل بالنسبة لمسلمى الغرب - الذين أعد واحدًا منهم - عملاً لا بد من إنجازه.

إن فى مقدور الإسلام مرة ثانية أن يحيى من جديد الأمل فى مجتمعاتنا الغربية التى حطمتها الانفرادية وأنموذج النمو الكمى الذى يقود العالم إلى الانتحار».

وقد أشرت هنا إلى جارودى كأحد الأمثلة للشخصيات الغربية التى يمكن التعاون معها على أساس أن الغربى المسلم الذى ولد ونما وعاش فى الغرب وتثقف بالثقافة الغربية أقدر من غيره على فهم نفسية الغربيين وما يشعرون به من أزمات روحية، وما يتطلعون إليه من حلول، وأقدر أيضًا على معرفة الأساليب التى يمكن أن يكون لها تأثير فى نفوسهم وعقولهم.

والموضوع فى حاجة إلى بحث مستفيض ودراسة واعية وتخطيط سليم. ولعلنا نتخذ العبرة من النشاطات السرية والمكشوفة لمؤسسات التنصير فى شتى أنحاء العالم والتى توجه معظم نشاطها إلى تنصير المسلمين، مستغلة ما يعانيه كثير من التجمعات الإسلامية فى أماكن كثيرة من بلاد العالم الإسلامى من جوع وحرمان ومرض وجهل. فهل نترك هؤلاء المسلمين يسقطون يومًا بعد يوم فى أيدى بعثات التنصير ونحن نتفرج مكتفين بأضعف الإيمان؟

لقد صادفت فى أثناء إقامتى فى ألمانيا فى أواسط الستينيات أنموذجين مؤلمين لكل نفس مسلمة: الأنموذج الأول كان قسيسًا أندونيسيًا ذكر لى أن جده كان مسلمًا ومات مسلمًا. ومن الواضح أن هذا القسيس كان من نتاج التبشير النصرانى النشط فى ذلك البلد المسلم: أندونيسيا. أما الأنموذج الثانى فقد كان أحد الأشخاص الأوروپيين الذين كانوا يعدون لمهمة التنصير فى پاكستان. وقد ذكر لى صراحة وبلا مواربة أنه سيكون أسعد الناس عندما يستطيع تحويل مسلم إلى المسيحية فى هذا البلد المسلم.

إن وراء هذه النماذج الفردية مؤسسات تنصيرية ضخمة. وتقوم هذه المؤسسات بين الحين والحين بعقد المؤتمرات التنصيرية العالمية لدراسة أفضل الخطط وأنجع الوسائل لإنجاح مشروعات تنصير المسلمين فى شتى بلاد العالم الإسلامى، وتتلقى الدعم المالى الهائل من مختلف الطوائف المسيحية ورجال الأعمال المسيحيين فى أوروپا وأمريكا. وقد كان أحدث هذه المؤتمرات مؤتمر أمريكا الشمالية لتنصير المسلمين الذى عقد فى (كلورادو) عام ١٩٧٨م.

٥ ـ ترجمة إسلامية لمعانى القرآن الكريم

إنه لأمر يدعو إلى الدهشة والغرابة أن يترك المسلمون كتابهم المقدس نهبًا لكل من هب ودب لترجمته ولا يحركون ساكنًا أمام عشرات الترجمات للقرآن فى كل لغات العالم. وفى كل لغة من اللغات الأوروبية نجد العديد من الترجمات القديمة والحديثة.

وفى الجانب الآخر يهتم المسيحيون بترجمة كتابهم المقدس إلى كل لغات البشر. وقد اطلعت على ورقة عمل مقدمة من «وليم د. رايبيرن ـ William D.Reyburn» إلى مؤتمر كلورادو ـ الذى أشرنا إليه ـ عن ترجمات الكتاب المقدس إلى لغات العالم المختلفة، وعن الترجمات الموجهة على وجه الخصوص للمسلمين فى شتى لغاتهم.

ويتضح من هذه الورقة مدى الجهد الكبير الذى يبذل فى سبيل توصيل تعاليم الكتاب المقدس إلى كل الناس عن طريق مئات الترجمات التى قامت بإنجازها الهيئات المسيحية التبشيرية. ولم نسمع عن ترجمات للكتاب المقدس قام بها أناس من غير المسيحيين.

أما نحن فقرآننا كلأ مباح لكل من يريد ترجمته وتحريفه، وشغلنا عن ذلك بمناقشات أضعنا فيها الكثير من الوقت حول جواز أو عدم جواز ترجمة القرآن. وقد كان الشيخ محمد مصطفى المراغى من أشد المتحمسين لموضوع ترجمة معانى القرآن عندما كان شيخًا للأزهر.

وتقدم بمذكرة إلى مجلس الوزراء المصرى فى عام ١٩٣٦م يقترح فيها ترجمة رسمية يقوم بها الأزهر بمساعدة وزارة المعارف، وذلك حتى يمكن أن تقف هذه الترجمة الرسمية فى وجه الترجمات العديدة المنتشرة فى العالم شرقًا وغربًا، والمليئة بالأخطاء. وقد وافق مجلس الوزراء على ذلك فى ١٦ أبريل (نيسان) ١٩٣٦م.

ولكن الشيخ الظواهرى وقف على رأس المناهضين لهذا المشروع ورأى «أن الطريق السليم لمناهضة هذه الترجمات غير الصحيحة هو مصادرة هذه الترجمات وطلب جمعها وإتلافها من جميع حكومات العالم»[١].

---

(١) راجع: ترجمة المعانى القرآنية للدكتور محمد السنباطى ص ١٤٥، ١٤٩ ـ الدوحة (بدون تاريخ).

وهذا مطلب غريب لا يمكن تحقيقه بأى حال من الأحوال. وهكذا وئدت الفكرة فى مهدها، ولم نفعل شيئًا من أجل المسلمين فى شتى أنحاء العالم من غير الناطقين بالعربية، والذين يتحدثون مئات اللغات المختلفة فى كل قارات العالم.

إن العرب لا يشكلون أكثر من نسبة ٢٠٪ من تعداد المسلمين فى العالم، فهل يترك باقى المسلمين من غير العرب تحت رحمة ترجمات فاسدة للقرآن قام بها أناس غرباء عن دينهم؟

لقد آن الأوان لإعداد ترجمات إسلامية مقبولة لمعانى القرآن الكريم باللغات الحية، نسد بها الطريق أمام عشرات الترجمات المنتشرة الآن بشتى اللغات التى قام بإعدادها بعض المستشرقين والمنصرين وصدروها فى غالب الأحيان بمقدمات مملوءة بالطعن على الإسلام.

ومن واجبنا أيضًا أن نقوم باختيار مجموعة كافية ومناسبة من الأحاديث النبوية الصحيحة وترجمتها إلى اللغات الحية؛ لتكون مع ترجمة معانى القرآن الكريم فى متناول المسلمين غير الناطقين بالعربية، وفى متناول غير المسلمين الذين يريدون فهم الإسلام من منابعه الأصلية.

٦ـ تنقية التراث الإسلامى.

تراثنا العربى الإسلامى يعد أغنى تراث فى العالم، وهو تراث نعتز به، ولا يجوز لنا أن نفرط فيه. ونعنى بالتراث كل إنتاج بشرى للمسلمين فى شتى مجالات الأدب أو اللغة أو الفكر أو الدين أو العلوم بصفة عامة أو الفنون المختلفة. وتنبع أهمية هذا التراث من أنه يمثل الإطار الذى يحدد للعرب والمسلمين هوية معينة وصبغة متميزة، ويمثل الخلفية الفكرية لتصوراتهم وأفهامهم لكل مجالات الحياة. ويعطى لهم الركيزة الأساسية للأيديولوچية الخاصة التى يتميزون بها بين الأمم. وكل ذلك مرتكز بطبيعة الحال على أسس إسلامية راسخة.

والاهتمام بهذا التراث لا يعنى مجرد التغنى بالأمجاد أو اجترار الذكريات، وإنما يعنى بالبحث عن الجذور الحقيقية للشخصية العربية الإسلامية، واستعادة الأمة العربية الإسلامية للثقة بنفسها وأمجادها وقدراتها على البناء والتطور الحضارى، حتى تسير بخطى ثابتة على أرض صلبة مستندة على رصيد حضارى ضخم.

وهكذا لا يعنى الاهتمام بالتراث التقوقع والانعزال عن التطورات العلمية والحضارية فى عالم اليوم. فالتراث نفسه يعطينا المثل الواضح. فالمسلمون عندما بنوا حضارتهم لم ينعزلوا، وإنما انتفعوا بكل ما كان قائمًا فى ذلك الزمان من علوم ومعارف على اختلاف أنواعها. فالتراث يجدد نفسه بصفة مستمرة عن طريق مواكبته لروح العصر والاستفادة إلى أقصى حد من كل الوسائل والأساليب الحديثة التى تفيد فى تنميته وتطويره. وكل ذلك بما لا يتعارض مع مقوماته الأساسية.

ولكن تراثنا العربى الإسلامى - شأنه شأن كل جهد بشرى - يشتمل على الغث والسمين، ويتضمن جوانب إيجابية وأخرى سلبية، الأمر الذى يعطى الفرصة لبعضهم فى تغليب الجانب السلبى على الجانب الإيجابى فى بعض الأحوال.

والواجب الإسلامى يقتضينا أن نعمل على تنقية هذا التراث العظيم وغربلته وإزالة الغيوم التى تحجب عنا إشراق شمسه، حتى يكون غذاء فكريًا صالحًا يمد المسلم بأسباب القوة التى تعينه على النهوض مرة أخرى بعزم جديد وتصميم أكيد.

وكلنا يعلم أن هذا التراث يشتمل على الكثير من الخرافات والأوهام والإسرائيليات. وعلى الرغم من أن الإسلام لا يتحمل وزر ذلك كله، فإن المستشرقين يستخدمون تراثنا بكل ما فيه، ويعمد الكثيرون منهم إلى البحث عن تلك الجوانب السلبية والتركيز عليها وتفصيل القول فيها، ظنًا منهم أنهم بذلك قد عثروا على نقاط الضعف فى الإسلام ذاته. ويكفى فى هذا الصدد أن نشير إلى مثال واحد - من بين أمثلة عديدة لا تحصى - وهو قصة الغرانيق المذكورة فى بعض كتب التراث، وهى قصة يعلم الله أن الإسلام برىء منها. ولكن المستشرقين قد ركزوا عليها وسلطوا عليها الأضواء من كل جانب واعتبروها نقطة ضعف فى التوحيد الإسلامى الذى كان - فى زعمهم - على استعداد، ولو للحظة واحدة، أن يتخلى عن تشدده مجاملة لمشركى مكة. فإذا اتهمنا المستشرقين بالتجنى - وهم متجنون بالفعل - حق لهم أن يردوا الاتهام قائلين: نحن لم نخترع شيئًا من عندياتنا، أليست القصة واردة فى بعض مصادركم المعتمدة؟

وتنقية التراث يمكن أن يوكل أمرها إلى المؤسسة العلمية الإسلامية التى سبق أن أشرنا إليها، على أن يكون لديها فى هذا الصدد خطة عمل تراعى أيضًا الأولويات الملحة، فيما يتعلق بتحقيق كتب التراث ونشرها.

٧ـ الحضور الإسلامى فى الغرب...

من الملاحظ أن الحضور الإسلامى فى المؤسسات العلمية فى الغرب ضعيف جداً إن لم يكن معدوماً، وليست هناك أهمية إسلامية كبيرة للكثيرين من أبناء العالم الإسلامى الذين يساعدون فى التدريس فى تلك المؤسسات، نظراً لأنهم لا يستطيعون ـ إلا فيما ندر ـ أن يصرحوا بوجهات نظر تتعارض مع وجهات النظر الاستشراقية حول الإسلام. والغالبية منهم يجارون التيار السائد، وإن لم يفعلوا فقدوا عملهم. . فهم مكبلون بقيود الوظيفة هناك. وعلى الرغم من كثرة عددهم مثلاً فى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية، فإنه ليس لهم نفوذ يذكر «فإن القوة ضمن النظام (فى الجامعات والمؤسسات وما إليها) محصورة تقريباً فى أيدى غير الشرقيين، رغم أن نسبة الشرقيين إلى غير الشرقيين بين الأساتذة المقيمين لا تعطى الأفضلية لغير الشرقيين إلى هذه الدرجة الجارفة»[١].

ولسنا هنا نريد أن نقلل من شأنهم أو نغض من أقدارهم، ولكننا نعبر فقط عن الموقف الصعب والوضع الحرج الذى يتحركون فى حدوده.

ومن أجل ذلك نقترح سبيلاً آخر لتقوية الحضور الإسلامى فى المؤسسات الأكاديمية فى الغرب، وذلك بمحاولة اقتحام مجالات تدريس العلوم العربية والإسلامية فى الغرب عن طريق الاتفاقات الثقافية التى تعقد بين بلدان العالم الإسلامى ودول أوروبا وأمريكا، وذلك بإرسال أساتذة أكفاء من الأقطار الإسلامية إلى معاقل الاستشراق للتدريس فيها. وبذلك يمكن بالتدريج تصحيح التصورات الغربية عن الإسلام بالعمل الدؤوب وليس عن طريق الشعارات الجوفاء. وأعتقد أن هناك الآن بعض الجامعات فى أوروبا وأمريكا لديها الاستعداد للاستجابة لذلك[٢].

ومن ناحية أخرى يمكن إنشاء معاهد أو مراكز بحوث إسلامية فى أوروبا وأمريكا على غرار المعهد الألمانى للأبحاث الشرقية فى بيروت، على أن يكون لهذه المراكز

---

(١) إدوارد سعيد ص ٣٢١.

(٢) وقد عجبت أشد العجب عندما قرأت ما ذكره نجيب العقيقى (٣/ ٦٠٥) من أن بعض الدول العربية كانت قد سعت إلى إنشاء كرسى للغة العربية فى جامعة سيدنى بأستراليا، فحالت نفقاته التى تبلغ خمسة عشر ألف جنيه بينها وبين إنشاء هذا الكرسى، فى حين أن هبات الأفراد فى أمريكا لكرسى اللغة العربية فى جامعة هارفارد تبلغ مائتى ألف دولار، وأن مؤسسة كارنيجى قد ساعدت بمبلغ خمسة وثلاثين مليوناً من الدولارات للمؤسسات الاستشراقية، وذلك فضلاً عن الميزانية المعتمدة من الحكومات.

منشورات علمية مثل معهد بيروت المشار إليه. وتستطيع هذه المعاهد أن تزود الجهات العلمية فى الغرب بالمعلومات وتسهم بما تنشره من بحوث علمية رصينة بلغات تلك البلاد، وما تقيمه من ندوات ولقاءات ومحاضرات - تسهم فى تصحيح التصورات الخاطئة عن الإسلام فى أوروبا وأمريكا والتخفيف من غلواء العداوة للإسلام فى الغرب بصفة عامة.

٨ـ الحوار مع المستشرقين المعتدلين

من المفيد جداً أن يكون للمؤسسات العلمية الإسلامية صلات بالمستشرقين المعتدلين تهدف إلى إجراء حوار مستمر معهم وعقد لقاءات وندوات تجمع بينهم وبين العلماء المسلمين.

وليس هناك شك فى أن مثل هذا الحوار سيكون له أثره الإيجابى على كلا الجانبين. فمن ناحية، سيكون دعماً لمواقف هؤلاء المستشرقين وتقوية لجانبهم وتشجيعاً لاتجاهاتهم بهدف أن تصبح هذه الاتجاهات المعتدلة فى يوم من الأيام تياراً عاماً فى الغرب يكون له تأثيره الفعال فى تصحيح الصورة الخاطئة عن الإسلام فى العالم الغربى.

ومن ناحية أخرى سيكون من نتائج هذا الحوار ترشيد المثقفين المسلمين المتأثرين بأفكار استشراقية سلبية والتخفيف من حدة اندفاعهم وتقليدهم لهذه الأفكار وإعادتهم إلى المواقف الإسلامية الصحيحة.

٩ـ دار نشر إسلامية عالمية

لقد أصبحت الحاجة ملحة إلى إنشاء دار نشر إسلامية عالمية تقوم بنشر المطبوعات الإسلامية بكافة اللغات، حتى لا تظل المطبوعات الإسلامية باللغات الأجنبية تحت رحمة الناشر فى الغرب. وأقرب الأمثلة على ذلك أن المفكر الفرنسى المسلم «جارودى» قد وجد صعوبة كبيرة فى نشر كتاب يفضح فيه ادعاءات الصهيونية بعنوان (ملف إسرائيل بين أحلام وأكاذيب الصهيونية). والمعروف أن دور النشر فى فرنسا كانت تتلقف كل ما يكتبه جارودى لتنشره على نطاق واسع فى أوروبا وأمريكا. ولكن إسلامه وتعاطفه مع قضية العرب والمسلمين قد غير الوضع.

ويمكن أن تقوم هذه الدار المقترحة أيضًا بإصدار صحف ومجلات إسلامية بلغات مختلفة، وتكون هذه الصحف والمجلات وسيلة للربط بين المسلمين في كل مكان: تعمل على تجميعهم وتوحيد صفوفهم وتعريفهم بقضايا الإسلام وإعلامهم بأخبار بعضهم بعضًا من مصادر صحيحة. وحبذا لو استطاع المسلمون إنشاء وكالة أنباء إسلامية عالمية تستطيع أن تثبت وجودها بصورة مشرفة، وتكون هي المصدر الذي يستقي منه الغرب معلوماته عن العالم الإسلامي وليس العكس، فنحن نستقي حاليًا معلوماتنا عن العالم الإسلامي من وكالات الأنباء الغربية التي لا تتحرى الموضوعية في غالب الأحيان في عرضها لأخبار العالم الإسلامي. فوسائل الإعلام الغربي بصفة عامة تتخذ موقفًا سلبيًا إزاء الإسلام وتساعد على تشويه صورته، انطلاقًا من النظرة الغربية العامة للإسلام والتي ترتكز أساسًا على المواقف الاستشراقية التي ترسخت في الأذهان على مدى قرون عديدة[1].

وبعد...

فقد كانت تلك بعض المقترحات التي يمكن أن يكون لها أثرها في مواجهة الاتجاهات السلبية المعادية للإسلام في الحركة الاستشراقية.

ولعل غيري يستطيع أن يضيف إليها وسائل أخرى فعالة. فلست أدّعي أنني أحطت بكل الجوانب ووضعت الحلول لسد كل الثغرات. فما قلته ليس هو نهاية المطاف، وإنما هو جهد المقل الذي يعرف حدوده. والمهم في هذا الصدد هو توفر إرادة التنفيذ لدى الجهات الإسلامية المعنية، وتوفر الرغبة في العمل لدى علماء المسلمين. وقبل هذا كله لا بد من توفر الإدراك الواعي للمشكلة وما لها من أبعاد مختلفة. فمثل هذا الإدراك هو البداية الصحيحة نحو الاتجاه السليم لمواجهة مشكلاتنا الإسلامية الراهنة.

وإذا استطاع هذا الكتاب أن يثير انتباه القارئ الكريم إلى التأمل والتفكير في أبعاد الحركة الاستشراقية وأهدافها ومراميها بغية الوصول إلى اتخاذ المواقف الصحيحة، فسيكون بذلك قد نجح في تحقيق الهدف من تأليفه.

والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

(١) انظر كتابنا: الإسلام في الفكر الغربي ص ٩.

ملحق

مركز الدراسات والموسوعات الإسلامية

انطلاقًا من الأفكار المطروحة فى هذا الكتاب لمواجهة التيارات الفكرية المضادة للإسلام فى الغرب بأسلوب علمى، قمنا - بعون من الله بعد أن تولينا العمل فى وزارة الأوقاف - بإنشاء «مركز الدراسات والموسوعات الإسلامية» فى إطار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

وقد أصدرنا بذلك القرار الوزارى رقم ٣٤ أ لسنة ١٩٩٦م بتاريخ ١٥/ ٢/ ١٩٩٦م محددًا مهمة هذا المركز على النحو التالى:

مادة أولى: يستحدث بالهيكل التنظيمى للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية تقسيم يسمى **«مركز الدراسات والموسوعات الإسلامية»** بهدف تجميع ما ينشر حول الإسلام باللغات الأجنبية وإعداد البحوث والرسائل لتصحيح الأفكار الخاطئة الواردة فى هذه المطبوعات، وشرح تعاليم الإسلام وأحكامه وإصدار موسوعات عن قضايا الإسلام فى مجالات الشريعة والعقيدة والأخلاق والتاريخ والحضارة والعلوم النظرية والعملية وغيرها بالعربية وبمختلف اللغات الأجنبية.

مادة ثانية: يباشر المركز الاختصاصات الآتية:

١- تتبع ما ينشر ويثار حول الإسلام وتعاليمه من خرافات وأباطيل وشبهات وإعداد ونشر الرد عليها.

٢- تتبع الدراسات والمؤلفات التى تصدر فى الغرب عن الإسلام وقضاياه والرد عليها باللغات الأجنبية كشفًا للحقيقة.

٣- تتبع ما يكتب فى الصحف والمجلات المحلية والعالمية بهدف تشويه صورة الإسلام وإعداد ونشر الردود المناسبة عليها.

٤ـ تتبع الرسائل الجامعية التى تبحث فى العلوم الإسلامية وترجمة الجيد والجديد منها وطبعها أو ملخصات لها تمهيداً لتوزيعها فى الداخل والخارج .

٥ـ بحث الاحتياجات من المعونات العلمية فى مجال العلوم الإسلامية وتقديمها إلى دول العالم الإسلامى والأقليات الإسلامية فى الخارج .

٦ـ إصدار سلاسل دورية بالعربية واللغات الأجنبية لشرح التعاليم الإسلامية فى مختلف قضايا العصر وفى كل ما يتعلق بالعلوم والمعارف الإسلامية .

٧ـ إعداد وتنفيذ خطة تجميع البيانات والمعلومات والدراسات الموسوعية فى مجال العلوم الإسلامية .

٨ـ إجراء الدراسات المتخصصة لترتيب وتبويب هذه المعلومات تمهيداً لإعداد الموسوعة العلمية الشاملة فى مجال العلوم الإسلامية .

٩ـ طبع ونشر الموسوعة الإسلامية بالعربية وباللغات الأجنبية .

وقد تم بالفعل تشكيل لجنة عليا للتخطيط للموسوعات الإسلامية المتخصصة فى ٢٨/ ١٠/ ١٩٩٦م، وتم تحديد مهمتها على النحو التالى :

١ـ وضع تصور كامل تقوم عليه قواعد العمل للموسوعات الإسلامية .

٢ـ حصر فنون الموسوعات النوعية التى يصدرها المركز .

٣ـ ترتيب أولويات الفنون العلمية لبدء العمل فيها وتحديد فن المجلد الأول من الموسوعة .

٤ـ حصر وتنظيم أبجديات المادة العلمية لكل فن من فنون الموسوعة .

٥ـ اقتراح قوائم الباحثين مع مراعاة الخبرة والتخصص .

٦ـ تحديد المساحة المطلوبة بالكلمة لالتزام الكاتب بها وتحديد الوقت الزمنى له .

وقد باشرت اللجنة عملها ، وانتهت إلى تحديد المجالات التى ستكون موضوعات لهذه الموسوعات وتحديد الأولويات . وقد استقر الرأى على البدء بـ **«موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة»** على أن تتبعها بقية الموسوعات فى المجالات الأخرى المتخصصة ، إن شاء الله . وهذا عمل يحتاج إلى صبر وجهد ، نسأل الله أن يعين عليه .

ونقوم الآن بدراسة اشتراك المركز المذكور فى شبكة معلومات دولية لتوفير المعلومات حول ما ينشر عن الإسلام بشتى اللغات حتى يمكن دراستها والرد عليها باللغات نفسها .

* * *

الأعمال التى تم إنجازها بعد إنشاء المركز

بعد إنشاء **«مركز الدراسات والموسوعات الإسلامية»** بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ كما هو موضح فى بداية الملحق بالقرار الوزارى رقم ٣٤أ لسنة ١٩٩٦م بتاريخ ١٥/ ٢/ ١٩٩٦م ـ تم بتوفيق من الله خلال السنوات العشر الماضية (من عام ١٩٩٧ حتى عام ٢٠٠٧م) إنجاز الأعمال التالية :

أولاً: سلسلة الموسوعات الإسلامية المتخصصة

١ ـ الموسوعة الإسلامية العامة .

٢ ـ الموسوعة القرآنية المتخصصة .

٣ ـ موسوعة علوم الحديث الشريف .

٤ ـ موسوعة الحضارة الإسلامية .

٥ ـ موسوعة أعلام الفكر الإسلامى .

٦ ـ موسوعة التشريع الإسلامى .

٧ ـ موسوعة الفرق والمذاهب فى العالم الإسلامى .

٨ ـ جارى العمل حاليًا فى الانتهاء من موسوعة التصوف الإسلامى .

ثانيًا: ترجمات معانى القرآن الكريم

كما تم أيضًا إصدار سبع ترجمات لمعانى القرآن الكريم إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والإسبانية والإندونيسية والسواحيلية .

ثالثًا: السلاسل الدورية

تصدر بانتظام فى أول كل شهر عربى سلسلة قضايا إسلامية ، وفى منتصف كل شهر عربى سلسلة دراسات إسلامية .

رابعًا: تم إصدار سلسلة جديدة بعنوان

أعلام الإسلام (صدر فيها حتى الآن ثمانية أعداد).

خامسًا: صدر العديد من الكتيبات حول موضوعات إسلامية متنوعة بالعديد من اللغات الأجنبية.

سادسًا: تم جمع الشبهات القديمة والحديثة حول الإسلام والرد عليها بأسلوب علمي. وقد صدر في ذلك مجلد بعنوان: حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين.

وتم ترجمة معظم ما ورد في هذا الكتاب إلى الإنجليزية، وصدرت هذه الترجمة عام ٢٠٠٥م.

سابعًا: تم إصدار العديد من الأقراص المدمجة C.D التي تشتمل على كم كبير من المراجع الإسلامية وترجمات معاني القرآن الكريم والموسوعات الإسلامية المتخصصة والرد على حملات التشكيك ضد الإسلام، وغير ذلك من معلومات إسلامية باللغتين العربية والإنجليزية.

ثامنًا: إنشاء موقع للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية على شبكة الإنترنت باللغة الإنجليزية والعربية للتعريف بالإسلام والرد على ما يثار حوله من شبهات.

تاسعًا: استكمالاً للأنشطة العلمية المشار إليها كان لابد من توجيه مزيد من الاهتمام إلى المخطوطات الإسلامية حفاظًا على تراثنا الإسلامي. ومن المعلوم أن المستشرقين قد بذلوا جهوداً مشكورة في هذا الصدد، وقد تم بتوفيق من الله إنشاء المكتبة المركزية للمخطوطات الإسلامية بالمبنى الملحق بمسجد السيدة زينب بالقاهرة، وتم نقل المخطوطات التي كانت لا تزال في العديد من المساجد إلى هذه المكتبة الجديدة لتحظى على يد فرق مدربة ماهرة بالترميم والفهرسة والتصوير والحفظ بأحدث الأساليب العلمية. وتضم المكتبة حتى الآن حوالي عشرة آلاف مخطوط في مختلف العلوم والفنون. وتعد الأولى من نوعها في مجال العناية بالمخطوطات الإسلامية.

عاشرًا: تم إصدار اثني عشر مجلداً تشتمل على كل ما قدم من بحوث لمؤتمرات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية منذ عام ١٩٩٦م حتى الآن. وذلك على النحو التالي:

١ـ الإسلام ومستقبل الحوار الحضاري ـ ١٩٩٦م.

٢ـ الإسلام والغرب: (الماضي ـ الحاضر ـ المستقبل) ـ ١٩٩٧م.

٣ـ الإسلام والقرن الحادي والعشرون ١٩٩٨م.

٤ـ نحو مشروع حضاري لنهضة العالم الإسلامي (الحلقة الأولى) ـ ١٩٩٩م.

٥ـ نحو مشروع حضاري لنهضة العالم الإسلامي (الحلقة الثانية): «الإسلام ومتغيرات العصر» ـ ٢٠٠٠م.

٦ـ التجديد في الفكر الإسلامي ـ ٢٠٠١م.

٧ـ حقيقة الإسلام في عالم متغير ـ ٢٠٠٢م.

٨ـ مستقبل الأمة الإسلامية ـ ٢٠٠٣م.

٩ـ التسامح في الحضارة الإسلامية ـ ٢٠٠٤م.

(تمت ترجمة معظم البحوث الواردة في هذا المجلد إلى الإنجليزية، وصدرت عام ٢٠٠٧م).

١٠ ـ إنسانية الحضارة الإسلامية ـ ٢٠٠٥م.

١١ـ مشكلات العالم الإسلامي وعلاجها في ظل العولمة (الحلقة الأولى): الأبعاد السياسية والاقتصادية ـ ٢٠٠٦م.

١٢ـ مشكلات العالم الإسلامي وعلاجها في ظل العولمة (الحلقة الثانية): الأبعاد الثقافية والاجتماعية ـ ٢٠٠٧م.

ويقوم المجلس حاليًا بالإعداد لمؤتمر يعقد في مارس ٢٠٠٨م تحت عنوان: [مقومات الأمن المجتمعي في الإسلام].

والله ولي التوفيق،،

قائمة بأهم الأعمال العلمية للمؤلف

أولاً: باللغة العربية

١ ـ تمهيد للفلسفة (الطبعة الخامسة) ١٩٩٤م ـ دار المعارف بالقاهرة .

٢ ـ المنهج الفلسفى بين الغزالى وديكارت (الطبعة الرابعة) ـ ١٩٩٧م ـ دار المعارف بالقاهرة .

٣ ـ دراسات فى الفلسفة الحديثة ـ دار الفكر العربى ١٩٩٣م (الطبعة الثالثة) .

٤ ـ مدخل إلى الفكر الفلسفى (مترجم عن الألمانية) ـ دار الفكر العربى .

٥ ـ مقدمة فى الفلسفة الإسلامية ـ دار الفكر العربى ٢٠٠٣م .

٦ ـ مقدمة فى علم الأخلاق ـ دار الفكر العربى .

٧ ـ الدين والفلسفة والتنوير (سلسلة اقرأ) ـ دار المعارف بالقاهرة .

٨ ـ الدين والحضارة (سلسلة اقرأ) ـ دار المعارف بالقاهرة .

٩ ـ الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك (سلسلة اقرأ) ـ دار المعارف ، ومكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٤م .

١٠ ـ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى ١٩٩٧م ـ دار المعارف ، ومكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٨م .

١١ ـ الإسلام فى مرآة الفكر الغربى ـ دار الفكر العربى ١٩٩٤م .

١٢ ـ الإسلام فى عصر العولمة ـ مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠١م .

١٣ ـ الحضارة فريضة إسلامية ـ مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠١م .

١٤ ـ الإسلام وقضايا الحوار ـ مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٤م ومكتبة الأسرة ، ٢٠٠٧م .

١٥ ـ الإسلام والغرب ـ مكتبة الشروق الدولية ٢٠٠٥م .

١٦ ـ هموم الأمة الإسلامية ـ دار الرشاد ١٩٩٨م ، ومكتبة الأسرة .

١٧ ـ الإنسان والقيم فى التصور الإسلامى ـ دار الرشاد ٢٠٠٣م ، ومكتبة الأسرة ٢٠٠٤م .

١٨ ـ المسلمون فى مفترق الطرق ـ دار الرشاد ـ القاهرة ٢٠٠٧م .

١٩ ـ ثلاثة رسائل فى المعرفة للإمام الغزالى (تحقيق ودراسة) مكتبة الأزهر .

٢٠ ـ الإسلام فى تصورات الغرب ـ مكتبة وهبة .

٢١ ـ الإسلام وقضايا العصر ـ المجلس الأعلي للشئون الإسلامية .

٢٢ ـ من أعلام الفكر الإسلامى الحديث ـ المجلس الأعلى للشئو الإسلامية .

٢٣ ـ الإسلام وقضايا الإنسان ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٤ ـ مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٥ ـ مفاتيح الحضارة وتحديات العصر ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٦ ـ الفكر الدينى وقضايا الأمة الإسلامية ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٧ ـ الإسلام ومشكلات المسلمين فى ألمانيا (محاضرة) ـ مكتبة وهبة .

ثانيا: مؤلفات باللغات الأجنبية

١ ـ فى اللغة الألمانية :

١ ـ فلسفة الغزالى مع مقارنتها بفلسفة ديكارت ـ ٢ ـ مدخل إلى الإسلام ـ ٣ـ قضايا حول الإسلام ـ ٤ ـ الإسلام وقضايا الحوار، وحوار موضوعى مع بابا الفاتيكان.

وذلك بالإضافة إلى العديد من البحوث المنشورة فى ألمانيا والنمسا.

٢ ـ فى اللغة الإنجليزية :

* ترجمة لكتب :

١ ـ حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك ـ ٢ ـ مقاصد الشريعة الإسلامية وضرورات التجديد، وحوار موضوعى مع بابا الفاتيكان.

* بحوث مترجمة إلى الإنجليزية منشورة فى القاهرة وبرمنجهام (إنجلترا) ونيودلهى (الهند):

١ ـ دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى ـ ٢ـ الصلات الثقافية بين العالم الإسلامى والغرب.

٣ ـ السلام فى نظر الإسلام. وقد نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ومكتبة الشروق الدولية البحوث الثلاثة الأخيرة فى كتاب بعنوان: On Philosophy Culture and Peace in Islam

٣ ـ فى اللغة الفرنسية :

* ترجمة لكتب : ١ ـ حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك ـ ٢ ـ الحوار الإسلامى المسيحى ـ ٣ ـ حوار موضوعى مع بابا الفاتيكان.

٤ ـ فى اللغة القازاقية :

* ترجمة لكتاب : ١ ـ حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك ـ ٢ ـ الإسلام وقضايا الحوار.

٥ ـ فى اللغات الروسية والإسبانية والتايلاندية :

* ترجمة لكتاب : حقائق إسلامية فى مواجهة حملات التشكيك.

٦ ـ فى اللغتين التركية والإندونيسية :

* ترجمة لكتاب : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى.

٧ ـ فى اللغة البوسنية :

* ترجمة لكتاب : فلسفة الغزالى مع مقارنتها بفلسفة ديكارت.

٨ ـ وبالإضافة إلى ذلك، تم ترجمة بعض البحوث التى ألقيت فى بعض المؤتمرات في أوروبا إلى الفرنسية والإسبانية والأوردية، وهى على التوالى: قضية الحوار بين الأديان السماوية الثلاثة، إسهام الإسلام فى صنع ثقافة الإسلام، التوحيد والنزاع فى نظر الإسلام، السلام فى نظر الإسلام.

ثالثا: مساهمات فى أعمال علمية أخرى

* ترجمة كتاب : بوخينسكى : «مدخل إلى الفكر الفلسفى» من الألمانية إلى العربية (دار الفكر العربى).

* الاشتراك فى ترجمة بروكلمان : تارخ الأدب العربى، إلى اللغة العربية.

* مراجعة على النص الألمانى لترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام للجزء الخاص بالعالم الشرقى من كتاب فلسفة التاريخ لهيجل.

الاستشراق

والخلفية الفكرية للصراع الحضارى

- لا تزال قضية الاستشراق تختلف حولها الآراء فى العالم الإسلامى بين مؤيد للاستشراق ورافض له . ولكن الشىء المؤكد فى هذا الصدد هو أن أعمال المستشرقين تشغل حيزًا لا يستهان به من اهتمام الكثيرين من علماء المسلمين، وذلك بالنظر إلى أن هذه الأعمال تنصب على دراسة الإسلام وتاريخه وحضارته، وتهتم بصفة عامة بكل صغيرة وكبيرة فى دنيا الإسلام والمسلمين، وهؤلاء المستشرقون يقومون ببحوثهم ودراساتهم بنظرة نقدية قد تتفق أو تختلف مع نظرة المسلمين . ويرجع ذلك إلى أن منطلقات تفكيرهم فى الموضوعات التى يقومون بدراستها تختلف عن منطلقات تفكير المسلمين .

- ولا زلنا نعتقد أن الحوار العلمى الهادف كفيل بالقضاء على الكثير من الأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة على كلا الجانبين .

والكتاب الذى نقدمه للقارئ الكريم فى طبعته الجديدة قد [illegible]
منذ حوالى ربع قرن، وأعيد طبعه مرارًا من جانب العديد من [illegible]

- وكل ما أضيف إلى هذه الطبعة هو قائمة بالأعمال التى تم [illegible] فى "مركز الدراسات والموسوعات الإسلامية" فى الفترة من عام [illegible] حتى عام ٢٠٠٧م.

- ونرجو أن يكون فى هذا الكتاب نفع لباحث، وفائدة لقارئ .

والله من وراء القصد، وهو ولى التوفيق ...

